من أجل الدفء

من أجـل الدفء

روايـــة

مـــروة مصطفـــى

مـن أجــل الــدفء

روايـــــة

اسم الكاتبة: مروة مصطفى
تدقيق لغوي: فريق المكتبة العربية
تصميم الغلاف: أحمد فخري الأسو اني
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الثانية
رقم الإيداع: ١٤٩٩٣ /٢٠١٨
طبعت بمطبعة الشروق

حقوق التوزيع

Facebook.com/arabiclibrary2017

إهداء

"إلى اليد التي دفعتني بقوّةٍ لأجد أول الطريق"

بين الأحرف

عندما فكّرت أن أكتب هذه الرو اية بحثت في عقلي عن بلدٍ تتّسم بخضرتها وجبالها الشاهقة وطبيعتها التي تأسر قلب كلّ إنسانٍ سواء أكان عربيًا أو أجنبيًا، فجاء في ذهني على الفور سوريا الحبيبة لكي أكتب أحداث جزءٍ كبيرٍ من رو ايتي فيها، وصفتها كما هي في أذهاننا دائمًا عندما يذكر اسمها، ولم أقصد أن أتجنّب أحداثها الحالية التي حتمًا ستنتهي يومًا، ولكني أحببت أن أحضر وصفها الدائم في نفسي ونفس أيّ شخصٍ يذكر أمامه اسمها.

قد أرى تلك الرو اية في زماني.. وقد تراها في زمانٍ مضى...

لكن هناك شيئًا واحدًا في كلّ الأزمان، ذلك الشيء الذي كانوا يبحثون عنه في الماضي، ونبحث نحن عنه الآن، ويبحث عنه من قد يأتي بعد، استهوى قلبي أن أبحث بكلماتي عن ذلك الشيء الذي قد نفتقده... وقد يكون في حياتنا ولم نشعر بقيمته، وقد نشعر بجزءٍ خاوٍ في حياتنا ينقصه شيءٌ ولا نعلم ما هو ذلك الشيء.

وحين ندركه لا نعرف كيف نكتسبه، وأيّ الطرق نسلكها إليه؟

نمضي حياةً من أجل الحياة... فنجد أنّ الحياة تمضي بحثًا عن الدفء.

(١)
بين ذكريات وطموح

أصبحت الحياة بالنسبة لها منحصرةً في طموحها المتوقد بداخلها خاصةً بعدما فقدت أسرتها الصغيرة وأصبحت وحيدةً بين ضواحي لندن.

خرجت نادية من مكتبها في السادسة مساءً وهي في غاية الإرهاق بعد عملٍ طويلٍ وشاق، فهي تمكث في مكتبها من الثامنة صباحًا حتى السادسة مساءً معتكفةً على أوراقٍ خاصةٍ بقضايا عدة، وهذا ليس بيدها بل إنّ مستر جاك هو من يكلفها بتلك الأعمال التي هي أكثر مما يجب عليها فعله.

فكثيرًا ما يتردد في ذهنها هذا الرجل الذي لم يحبها قط، وعندما يرمقها يشعر كأنه سمع خبرًا كالصاعقة اشتاط منه غضبًا، ولكن على أيّة حالٍ هي تقوم بما يجب؛ فهي تحب ذلك العمل وتبني طموحها عليه، خاصةً أنّ مكتب المحاماة الذي تعمل به من أكبر المكاتب في لندن وهذا يلبي طموحها الذي طالما سعت إليه.

أوقفت سيارة أجرة لتصل إلى البيت سريعًا فهي بحاجةٍ إلى راحةٍ قبل أن تستكمل مسيرتها التي اعتادت عليها، فكلّ يومٍ يُسلِّمها مستر جاك قضيةً لدراستها وإعدادها لتأتي بها في اليوم التالي.

قطع تفكيرها وقوف سيارة أجرة فركبت و انطلق السائق وهي تنظر إلى ساعتها، متمنيةً لو أنها تستطيع أن تتحكّم في عقاربها فتجعلها تتحرك ببطءٍ كي تأخذ قسطًا كافيًا من الراحة.

وراحت تتأمل الشوارع كأنها لم ترها منذ زمنٍ بعيد، وترمق تلك المباني العالية وناطحات السحاب، وتتأمل خطوات الناس الهادئة والمحال المصفوفة على جانبي الطريق في ترتيبٍ أنيقٍ ومبهج، ولمحت ذلك المقهى الذي

تحب تناول القهوة فيه، حدّثت نفسها... "كم أنا في حاجةٍ إلى ذلك الفنجان من القهوة لكن لا أريد أن أختلس من الوقت ما يمكن أن أستغله في الراحة.. لا بأس سأعد لنفسي فنجانًا من القهوة حين أستيقظ من نومي".

وقفت سيارة الأجرة أمام العنوان الذي أدلت به، فنزلت متجهةً إلى بيتها الذي شهد حياتها منذ مولدها إلى تلك اللحظة الحالية، يحمل كلّ ذكرياتها مع أسرتها الصغيرة التي فقدتها، فهو عبارة عن بيتٍ صغيرٍ من طابقٍ واحدٍ وفي أسفله حجرة كبيرة خاصة بوالدها الذي فقدته منذ سنتين، كان يقوم فيه بعمله الخاص بهندسة السيارات التي كان يعشقها، كم هي جميلة ذكرياته معها التي لا يخلو ذهنها منها، وإن خلا المكان منه فتبقى ذكرياته حاضرةً تتجسد في ذهنها وتدب أثرها في قلبها.

أخذت تخطو خطواتها وتصعد على السلم وهي مستندة على الجدران من الإرهاق، وما إن دخلت منزلها حتى ألقت كلّ ما في يديها مستريحةً على الأريكة ذاهبةً في نومٍ عميق، لكنه كان يمتزج بأحلام متقطعة من ذلك الأمر الذي يشغل عقلها دائمًا، والذي ينقلب إلى كابوسٍ ترى فيه نفسها ترقد وتدور حول ذاتها وتتملكها مشاعر الخوف الذي ملأ صدرها. وما لبثت أن استيقظت على أمل أن يكون حلمًا عابرًا لا أكثر، ويستقر نبض قلبها حين تفيق، إنه فعلًا كابوس لكن مشاعر الخوف ما زالت تملك قلبها. فضلت أن تأخذ حمامًا دافئًا وتأكل شيئًا قبل الشروع فيما تود القيام به.

جلست تسترجع ذكرياتها مع والدها الذي كانت تعيش معه بمفردها إلى حين فارق الحياة وفارقها وحيدة، فوالدها تزوج من والدتها الإنجليزية بعد أن ترك سوريا وسافر إلى لندن ليحقق طموحه الذي يحلم به منذ صغره، فكان يحلم أن يعمل مهندسًا في إحدى الشركات الكبرى لتصنيع السيارات في لندن، فقد كان مولعًا بتلك الصناعة رغم رفض أسرته فكرة السفر خوفًا من مفارقتهم، محاولين إقناعه بأن يلبث معهم ويساعد والده الذي يمتلك

شركةً صغيرةً لصناعة الأغذية في حلب، لكن طموحه كان مختلفًا وأكبر من أن يتغاضى عنه ليحقق آمال والده فيه، واستنار وجهها بابتسامةٍ عميقةٍ عندما تذكرت حديث والدها الذي يتردد في ذهنها دائمًا، وكأن صوته ما زال يدوي في أذنيها حينما أخبرها بابتسامةٍ تملأ وجهه: "أتعلمين أني لم يحالفني الحظ لأعمل في إحدى الشركات الكبرى التي كنت أطمح إلى العمل بها إلا بعد أن جئتِ أنتِ إلى الحياة؟"

فكم كان يخفق قلبها من تلك الكلمات التي تُشعرها أن لها أثرًا جيّدًا في حياة والدها، وقت أن ربط تحقيق نجاح حلم حياته بمجيئها إلى الحياة. وسرعان ما تلاشت ابتسامتها حين تذكرت والدتها "فينيس" التي لم تلبث في حضنها سوى سنتين من عمرها ثم فارقت الحياة، ورغم فراقها مبكرًا عنها فإنها تعرف عنها الكثير، فوالدها كان دائم الحديث عنها، يحكي لها كم وقفت بجواره وتحملت معه أيامًا مرت صعبةً ومرهقة، ويصف لها ابتسامتها المشرقة الجذابة التي كانت لا تغيب عنها أبدًا، كان دائمًا ما يقول لها "إنك تشبهينها كثيرًا". وظلت وحدها مع والدها فأصبح مصدرًا للعطف والحنان اللذين فارقتهما بعد رحيل أمها، فقد كان كلّ شيءٍ بالنسبة لها وهي أيضًا كانت الحياة بالنسبة له، وكانت تشاهده كثيرًا شاردًا في ذكرياته ووجهه يعبر عن سبب شروده تارةً بابتسامةٍ وتارةً بتعبير حزن، ويتيقن قلبها أنه يفكر في عائلته التي غاب عنها، كما تفعل هي الآن وهي وحيدة كلما خلت بنفسها شرد عقلها إلى ذكرياتها. فكانت تجلس مع والدها تشاركه حديث نفسه وتسأله:

- أكانت أيامًا سعيدة؟

فيجيبها وفي قلبه تلك المشاعر المضطربة بين الحنين والحزن:

- نعم كانت أيامًا لا تُعوّض.. كانت حياة جميلة وهادئة في بيت جدك، وكان ترابطنا هو ما يُجمِّل تلك الحياة، كان بيت جدك بيتًا يملأه الضجيج

والفرح، وكان بيتًا مفتوحًا لكل الناس. وكنت أكبر في ذلك البيت الجميل وتكبر الثقة التي كان يزرعها جدك بداخلي ويدعمني حنان جدتك الذي لا ينفد فيكبر طموحي ويزداد ترابطي به، حتى أصبح لا يفارقني مطلقًا، كان هو الهدف الذي أرى فيه جمال الدنيا، حتى عندما غضب جدك وخيّرني بينه وبين سفري كان حلمي هو الذي يقودني.. يقود مشاعري وعقلي و أيضًا كنت أثق أن الترابط الذي بيننا لا بدّ أن يكون حصنًا من أيّ خلافٍ يحدث بيني وبينهم. وعندما سافرت وبدأت في تحقيق حلمي بعد مشوار ممتلئ بالتعب والمشقة أرسلت لجدك خطابات عدة أبشره بنجاحي وبحفيدته التي استقبلتها الحياة على أمل أن يفرح ويصفح عني لكن لم أجد ردًا منه قط.

ثم سألته: "لماذا لم تسافر إلى جدي بعد ذلك النجاح لتبشره وتطلب منه أن يسامحك، فربما كان ينتظر عودتك إليه؟"

- الخوف.. الخوف من أن يردني، فكنت أتفقد أخباره من حين إلى آخر، فجدك من الأشخاص المشهورين والمحبوبين في حلب، الجميع يعرفه ويحبه، وكرمه وبشاشته مع الناس كانت حديثًا للجميع، فكانت تأتيني أخباره من بعض الأشخاص القادمين من حلب، والذين هم على علمٍ بما حدث بيني وبين جدك، فيصِفون لي كم يكون غضبه عندما يَذكرني أحد أمامه، ويقسم بأنه لن يرضى عني أبدًا ولن يسمح برؤيتي مهما حدث.

أفاقت من شرودها على صوت جرس التليفون، نظرت في ساعتها فكانت لا تتجاوز الحادية عشرة مساءً ورفعت السماعة إلى أذنها فإذا به صوت مديرها "مسترجاك" الذي لا يتركها تستمتع يومًا بذلك الوقت من غير أن يعكر صفو راحتها بسماع أسلوبه الفظ معها، ورغم ذلك كانت تنتابها ابتسامة لأنها تعلم ما سيقوله مسبقًا.. فتلك كانت عادته كلّ يوم. بادرت بالحديث:

- أهلًا مسترجاك.

- غدًا أحضري لي أوراق القضية التي كلفتك بإعدادها، الخاصة بدكتور "آربت"، ويجب أن تلخصيها جيّدًا وتبحثي عن معلومات كافية عن كلّ ما يدور حول تلك القضية.

- حسنًا مستر جاك سأفعل.

- أتمنى ألا أجد أخطاء فادحة أرهق نفسي في تصحيحها قبل أن أنقلها إلى "مستر سميث" ليطلع عليها.

ردت بابتسامة: "بالطبع مستر جاك سأحترس جيّدًا عند تحضيري لكل ما يلزم القضية".

هي تعلم جيّدًا بأنه يثق بذكائها واجتهادها في تحضير القضايا ولكنه لم يعترف بذلك يومًا. وانتهت المكالمة بنبرته الساخرة المعتادة "أرجو ذلك". استدارت نادية بعد انتهاء المكالمة دون مبالاة لما سمعت فقد اعتادت على أسلوبه معها.

واستراحت على الأريكة المجاورة للتليفون وأغلقت عينيها لعلها تعود إلى ما كانت تفكر فيه لكن صوت مستر جاك ما زال في أذنيها، مما حملها على القيام من استراحتها متّجهةً إلى أوراق القضية التي تود التحضير لها قبل صباح غد، وأمسكت بأوراق القضية متّجهةً إلى مكتبها الصغير بجانب النافذة، وجلست تطلع على أوراق القضية وتقرأها بالتفصيل وتكتب ملاحظاتها في مسودة جانبية، انهمكت في أور اقها لفترةٍ طويلةٍ حتى إنها لم تشعر بالوقت فنظرت إلى الساعة فوجدتها الثانية صباحًا، لكنها لم تبالِ بالوقت، ورغم احتياج عقلها إلى الراحة فإن موضوع أوراق القضية جذب كلّ اهتمامها، وعزمت على ألا ترتاح قبل أن تنهي تحضير أوراق القضية دون أخطاء لتثبت لمستر جاك جدارتها، فكم يغيظها تشكيكه في ذلك، فهي دومًا يأسرها ذلك الإصرار وترى الحياة بزاوية والدها الذي تعلمت منه أن الحياة

لا تكون دون حلم وأن النجاح لا يكون إلا بالإصرار والصمود، اقتنعت بتلك المبادئ رغم سؤالها الذي يتردد في ذهنها دائمًا، أكان أبي محقًا عندما حارب الحياة من أجل طموحه أم أنه ندم؟ ظل الجواب معلقًا وتركت إجابته للأيام فهي خير مجيبٍ عن تلك الأسئلة.

بالفعل أتمت تحضير القضية في الساعة الثالثة والنصف وشعرت بالارتياح منتظرةً ذلك الغد الذي تقف فيه أمام مديرها وهو يقرأ ما أعدت فيحرك نظارته بإصبعيه... ممهدًا لكلماته القليلة التي يرددها تعبيرًا عن قبوله لما أعدت: "جيد جيد".

زفرت أنفاسها، كم هي قضية شاقة ومحيرة ظلت تراودها حتى في راحتها لسويعات قليلة كانت نائمة فيهن، لكن ذهنها كان يقظًا تتجسد فيه كلّ أحداث القضية حتى تسلل ضوء الشمس إلى عينيها، أحضرت فطورها وقهوتها وأمسكت أوراق القضية لتعيد قراءتها من جديد، وهي تفكر هل أعدت أوراقها جيّدًا؟ هل تستطيع أن تُنصف ذلك الطبيب الذي يدعى "كيفن" والذي كان كلّ ذنبه أن لديه ضميرًا حيًّا أراد أن يهاجم الفساد؟

أمسكت ورقة هي نسخة من أقواله التي أدلى بها أمام الضابط يقص فيها كلّ ما دار في تلك الأيام قبل القبض عليه بتهم عدة، قال... أعمل في ذلك المستشفى منذ عام ونصف، وكنت في غاية سعادتي لاستطاعتي أن أعمل في مستشفى كبير، وكان الأمر في البداية عاديًّا جدًّا، لا يوجد ما يدعو للشك، حتى بدأت في يوم ألاحظ أمرًا غريبًا! بعض المرضى كنت قد تابعت حالتهم، وكانت حالتهم الصحية لا تستدعي المكوث في المستشفى كثيرًا، وبعدما غادروا المستشفى بيومين عادوا مرةً أخرى ولكن كانت حالتهم الصحية حرجة جدًّا نتيجة اضطرابات في الجهاز التنفسي أو من قرح في المعدة، وبدأت الحيرة تراودني عندما جاءت نتيجة التحاليل بنفس السبب وهو أخذ جرعات من دواء فاسد، وبعد عدة حالات بدأت أبحث أكثر في الأمر دون أن أخبر أحدًا،

وحاولت أن أحدد نوعية الأدوية التي تسببت في ذلك، وكان ذهولي عندما وجدت أن تلك الأدوية هي التي قمت بكتابتها للمرضى ليتناولوها خلال مكوثهم في المستشفى، قلت لنفسي إذًا فتلك العقاقير من المستشفى، كان عقلي لا يرغب أن يستوعب ذلك، وحاولت التأكد من الأمر أكثر.

وزاد إصراري على ذلك عندما عرضت الأمر على مدير المستشفى فنفى تمامًا شكوكي قائلًا... "قد يكونون قد تناولوا مثلها قبل دخولهم المستشفى، لا تشغل عقلك بذلك الأمر، كلّ ما عليك هو أن تقوم بواجبك تجاههم". وتشاور معي في كيفية علاجهم ثم أمر مدير الصيادلة الخاص بالمستشفى بإعطائي العقاقير التي أطلبها، ولكنه أتى لي بها من غرفة أخرى مغلقة، ولم تكن تلك الغرفة هي المخزن المعتاد لحفظ الأدوية فزاد ارتيابي ولكن ليس فقط من العقاقير، وإنما بدأ شكي يتوجه تجاه مدير المستشفى ومدير الصيادلة، فأصررت أكثر على إراحة شكوكي بعد أن شعرت أن الأمر وراءه كارثة، في يومٍ كتبت لمريضٍ عقاقير تناسب حالته وكنت قد اشتريت مثل تلك العقاقير من الخارج، وانتظرت معه حتى أتت الممرضة بالأدوية التي أشرت عليها وبدلتها بالأدوية التي اشتريتها دون أن يشعر أحد، وتوجهت بعدها على الفور إلى معمل صديق لي ليقوم بتحليل مادة الأدوية، وكانت النتيجة أن تأكدت ظنوني، وتشتت عقلي ولم أدر ما أفعل وكيف أواجه تلك الكارثة، وكيف أمنع وصول تلك الأدوية إلى أفواه المرضى وإلى دمائهم؟

لم أستطع أن أرتب أفكاري. كلّ ما كان يشغلني أن أضع حاجزًا بين تلك الأدوية والمرضى، ذهبت إلى المستشفى وواجهت المدير بنتائج التحاليل وهددته بإبلاغ الشرطة، فهاجمني هجومًا عنيفًا واتهمني بالتزوير بقصد الإساءة لاسم المستشفى، والتسبب في تدهور حالات المرضى بعقاقير دسستها إلى المستشفى، ثم أبلغ الشرطة وتم القبض عليّ.

أنهت قراءة الورقة التي قرأتها أكثر من مرة منذ الليلة السابقة وفي كلّ مرة تتأمل بعجب كيف تنقلب الأحوال، وتتساءل في نفسها "أيمكن للأمور أن تنقلب إلى ذلك الحد.. أيمكن أن يحل الحق مكان الباطل والباطل مكان الحق؟ وبات عقلها يؤمن بحقيقة أن طريق الحق تمتلئ بالعثرات لكن حتمًا نهايتها النجاة، لكنها تحتاج لقوة إيمانية بها لأن من يزيل قناع الظالم هو أول من يتلقى ركلاته، كما حدث مع "كيفن" فهو الآن يقاوم ركلات من أزال قناعهم.

ورددت برجاء ينبع من قلبها أن يكون إعدادها للقضية يفيد هذا الطبيب.

أخذت تأكل قطعة من الخبز بالجبن ثم ارتشفت قهوتها الساخنة على عجل حتى لا تتأخر عن وقت عملها وتسمع كلمات جافة من مستر جاك تعكر صفو يومها.

ذهبت مسرعةً في طريقها متّجهةً إلى عملها في ذلك المكتب الكبير... كانت تتأمله كلما اقتربت من موقعه المتميز، ذلك المكتب الذي يحمل اسمًا كبيرًا في ضواحي لندن... يعرفه كلّ من يعيش في لندن ومن هم خارجها أيضًا... فصاحب المكتب هو مستر "سميث"، من أكبر المحامين المشهورين في لندن، لكنها لم تلتق به قط، رغم أنها تعمل في مكتبه فإنه يحمل أعباء وقضايا كثيرة فهو من أمهر المحامين وأكثرهم صيتًا، فدائمًا ما تتابع تلك القضايا الكبيرة التي يترافع فيها ببراعة وتظل هي حديث الصحف.. ولذلك يترك أمر إدارة المكتب لمستر جاك مساعده الخاص و أقرب المحامين إليه. وظل حلمها أن يجد مستر "سميث" من اجتهادها في القضايا التي تعدها ويتولى تقديمها له مديرها مستر "جاك" ما يلفت انتباهه باجتهادها في تلك القضايا وتحظى بمقابلته والتعلم منه عن قرب.

كان طموحها يسوقها دائمًا إلى ذلك الحلم فتتحمل سهرها على القضايا والضغوط التي تتلقاها من مستر"جاك" في سبيل ما تطمح أن تصل إليه...

اتجهت إلى مكتب مستر "جاك" مباشرةً بعد أن وصلت إلى مكتب المحاماة، وسمح لها بالدخول بعد أن أجلسها أمام بابه فترةً من الزمن ولكنها لم تبال، فدخلت وهي تحمل ابتسامةً عريضةً وفي عينيها تحدٍّ، سألها:

- هل أحضرت أوراق القضية؟

- بالطبع أحضرتها معي.

أخذ الأوراق ليطلع عليها محركًا نظارته بطريقته المعتادة مرددًا "جيد جيد".

كتمت ابتسامتها وهي خائفة أن تطلق سراحها فتكون في مأزق... ثم قال لها دون أن ينظر إليها:

- اذهبي إلى مكتبك ستجدين بعض الأوراق لتنجزيها على الفور.

- حاضر مستر جاك.

تركت المكتب بهدوءٍ وهي تعلم أنها سوف تفاجأ بكمٍّ هائلٍ من الأوراق التي تنتظرها، وبالفعل وجدت ما كانت تتوقعه لكنها ورغم غيظها تحب ذلك التحدي الذي تواجهه دائمًا مع مستر جاك.

عكفت على أور اقها... وكانت أرجاء المكتب هادئة، فمعظم زملائها في المحكمة يتولون المر افعة في بعض القضايا الصغيرة التي يكلفهم بها مستر جاك، والتي لا تحتاج لرفعها إلى مستر "سميث" لسهولتها مقارنةً بتلك القضايا التي يتولاها، ورغم ذلك لم يُفوِّض إليها مستر جاك من تلك القضايا إلا قضيتين على مدى فترة عملها في المكتب... كان يكتفي بتكليفها بتحضير القضايا وكتابة مسودة تفصيلية عنها وتوضيح النقاط التي قد تشير لبعض

الأدلة التي تفيد القضايا، ولا تعلم لماذا يحصرها في ذلك العمل دون غيرها من زملائها ولا ينيبها لأيّ قضيةٍ كي تتر افع فيها... أيريد تحجيمها بسبب موقفه منها والذي لا تعلم له أيّ سببٍ حتى الآن؟ أم أنه يفضل أن يوليها تحضير القضايا الهامة دون الاعتراف لها بذلك الأمر بالطبع؟ فهي لا تعلم الإجابة، ولكنها كانت تتشوق لتلك القضايا التي ترى فيها بعض الغموض فتثير انتباهها وتترك فيها كلّ تركيزها حتى تضع إصبعها على بعض الخيوط التي بنسيجها تتواجد الأدلة.

أنهت عملها بعد يوم مثقل بمهام شاقة وقررت أن تذهب إلى المقهى المحبب إليها لتشرب فنجانًا من القهوة فهي ترغب أن تأخذ قسطًا من الهدوء، فخرجت من المكتب تاركةً كلّ أعبائه وراء ظهرها ووقفت على حافة الرصيف الموازي للمكتب وأوقفت سيارة أجرة، ثم جلست في الخلف بجانب النافذة المغطاة بسحابةٍ من الماء جعلتها تعجز عن رؤية الطريق بوضوح؛ فالطقس اليوم أكثر برودة، شعرت برعشةٍ في بدنها فأخذت معطفها وألقته على كتفيها واحتضنته بذراعيها، وأخذت تفكر في ذلك الشرق الذي لم يغب عنها لحظةً واحدة، فرغم مولدها في لندن وقضاء ما مضى من عمرها فيه فإنها كانت تعيش حياة الشرق أيضًا بكل تفاصيلها... فحياة الشرق جزء منها، فهذا ما حرص والدها أن يحققه.. أن يبني بداخلها المدينة الغائبة ويجعلها مستقرة بداخلها، لكنها أيضًا ترتبط بموطنها الذي نشأت فيه وعاشت فيه عمرها، وبنت فيه طموحها وأحلامها... فتحتضن بقلبها عالمين.. عالم غائب ليس له أثر في أيام عمرها التي مضت لكنه محفور في ذاكرتها وفي قلبها، وعالم آخر لم تتنفس إلا هواءه، شاهد كلّ عمرها الذي قضته وتحمل فيه من الذكريات ما يثبت في الذاكرة ويملأ قلبها... عالم غائب وآخر حاضر شتان بين المعنيين لكنهما يجتمعان في نقطةٍ واحدةٍ ويستقران... في ذاكرتها وقلبها.

تذكرت وصف والدها عن حلب مدينته التي يعشقها قائلًا: "مدينة تبتسم دائمًا يشع منها النور حتى في الليل، شمسها مشرقة ترى إشراقها الجميل فتغوص في الأعماق، وضواحيها بقعة خضراء تضم الخير من جميع أرجائه".

وصلت نادية إلى المقهى، ثم اتجهت نحوه قاصدةً مقعدها الذي اعتادت الجلوس عليه في حالة أن يكون فارغًا، والذي يأخذ زاوية في أحد جوانب المقهى، وبجانبه زجاج شفاف يصف الطريق، وفي أسفل الزجاج من الخارج صفٌّ طويلٌ من الأزهار تضفي على المكان جمالًا تحب أن تُملي عينيها منه فتشعر بالهدوء والانسجام.

التفتت إلى النادل لتطلب فنجان القهوة فأجابها على الفور، وجلست تتطلع إلى الوجوه الجالسة حولها... فأمامها رجل يبدو أنه في عمر الستين، يتصفح جريدةً في يده، وأمامه فنجان من القهوة، وبجانبه من الناحية اليسرى سيدتان تتبادلان الحديث في نهم، وعلى الجانب الآخر شاب في مطلع العشرين، عيناه تائهتان بين الطريق، فيبدو أنه ينتظر قدوم شخص في ذلك الموعد، وما لبث أن جاء النادل بالقهوة فارتشفت منها عائدةً بعينيها إلى الطريق مرةً أخرى متأملةً قطرات المطر المتساقطة والغيوم التي تملأ السماء وأناس يملؤون الطريق ذهابًا وإيابًا كلّ منهم ملتف في ثيابه الشتوي السميك. وما إن أنهت قهوتها حتى همت بالنهوض باحثةً في حقيبتها عن نقود وضعتها بجانب فنجان القهوة الفارغ، وخرجت متّجهةً إلى بائع الجرائد لتشتري ما يلزمها من الصحف التي اعتادت أن تشتريها كلّ يوم، وما إن وصلت إلى بائع الجرائد حتى أعطاها طلبها دون أن تتفوّه بكلمةٍ فهو أيضًا يعرف جرائدها المفضلة. واتجهت إلى البيت مسرعةً كعادتها لتراعي الوقت الذي يكفل راحتها وتجهز أوراق القضية الجديدة. وبعد قسط من الراحة

جلست تتصفح تلك الأوراق لكن عقلها كان مشغولًا بالقضية التي حضّرتها ليلة الأمس، ودكتور "كيفن" الذي سيكون مصيره مظلمًا إن لم تأخذ قضيته العناية والاهتمام الكبير، وعزمت أن تعرف أخبار تلك القضية من مستر جاك بعد مرافعة مستر سميث فيها.

وقضت الليل وسط أوراقها التي لم يقطعها سوى اتصال مستر جاك المعتاد الذي يحمل بعض الكلمات التي تحبس الأنفاس...

(٢)
الاختيار الصعب

كان هذا الصباح مختلفًا بالنسبة لها، فكلها شغف أن تعرف أثر تحضيرها في قضية الطبيب "كيفن"، وسرعان ما أخذت حمامها الدافئ وارتدت فستانها الأزرق وظهرت بشكلٍ أنيقٍ كعادتها، وأحضرت أور اقها متّجهةً في طريقها إلى المكتب، وحين وصلت قصدت مكتب مستر جاك مباشرةً، وكلها شوق لمعرفة مصير ذلك الطبيب راجية أن تسمع أخبارًا طيبةً وأن تكون ثمار مجهودها خيرًا فاليوم موعد إصدار الحكم في قضيته.

وقفت أمام الباب للحظاتٍ تستجمع شجاعتها لكي تطلب من مستر جاك معرفة الأنباء، ثم بعد لحظاتٍ نقرت الباب قائلة:

- مستر جاك هل تسمح لي بالدخول؟

وبعد لحظات.. أجابها: "تفضلي".

دخلت ثم وضعت أوراق القضية الجديدة أمامه على المكتب ثم قالت بنبرةٍ هادئةٍ يملأها الارتباك:

- تفضل مستر جاك لقد أحضرت أوراق القضية.

كان مشغولًا بأوراقٍ أخرى حتى إنه لم ينظر إليها وهو يحدثها بضيق:

- حسنًا ضعيها واذهبي.. لديك أعمال كثيرة اليوم ستجدينها على مكتبك.

لكنها لم تتحرك من مكانها وهي تشعر بالحيرة، وسألت نفسها كيف تستخلص منه أخبار قضية الطبيب كيفن، وأخذت تهمهم بما يدور في تفكيرها، فنظر إليها بحدة.. "ما الأمر؟"

وما إن أجمعت شجاعتها لسؤاله حتى أسكتها جرس الهاتف فأخذ مستر جاك السماعة مجيبًا، وسرعان ما اعتدل في جلسته المائلة مرددًا... "حسنًا سوف أخبر الجميع".

بدا على وجه نادية علامات الاستفهام لتلك المكالمة التي جعلتها ترى مستر جاك في صورةٍ جديدةٍ لبضع ثوانٍ، وكأنه تحوّل إلى شخصٍ آخر أكثر طوعًا، ولكن سرعان ما ذهب الغموض عندما أغلق مستر جاك السماعة ثم نظر إليها نظرةً طويلةً جعلت قلبها ينقبض خوفًا حتى بدأ حديثه:

- لقد دعاني مستر سميث لاجتماع عاجل يريد فيه أن يجتمع بكل موظفي المكتب.. جهزي نفسك على أن تكوني في قاعة الاجتماع بعد نصف ساعة من الآن، وأحذرك أن تتأخري عن الحضور.

ولم تلتفت نادية لذلك التحذير الأخير فلقد أسعدها الخبر لدرجة أنها ظلت تضحك فرحةً بحماسٍ وهي تخرج من مكتب مستر جاك بظهرها متسائلة:

- حقًّا سنقابل مستر سميث؟ هذا أسعد خبر سمعته.. شكرًا لك مستر جاك، لا تقلق سأكون في الموعد في قاعة الاجتماع.

خرجت مسرعةً من مكتبه حتى إنها لم تتذكر أن تسأله عن القضية التي كانت مُتشوِّقةً أن تعرف أخبارها، واتجهت إلى مكتبها وهي تلقي الابتسامات على الجميع... وظلت تنظر في ساعتها وتردد في نفسها "لا أصدق أني سألتقي بمستر سميث وأن أمنيتي ستتحقق بمقابلته، والتي تمنيتها منذ أن بدأت العمل في ذلك المكتب منذ سنتين حتى ظننت أنه أمرٌ مستحيل". وخرج صوتها يردد بصوت خافت.. "حقًا إن السعادة تأتي دون توقع".

وظلت تستمع للجميع وهم يتحدثون عن ذلك اللقاء الذي سيجمعهم بمستر سميث، وأدركت أنه ليس حلمها وحدها فقط.

جاء وقت اللقاء وامتلأت قاعة الاجتماع -التي تدخلها لأول مرة- بجميع موظفي مستر سميث، و انبهرت بتلك القاعة الواسعة الأنيقة التي توحي بشأن صاحبها... خاصة أنها تعلم أن كثيرًا من اجتماعاته تضم العديد من الشخصيات الهامة لمناقشة قضايا كبيرة.

لكنها لم تتعجب أنه قبل قضية الطبيب كيفن، فهو دائمًا يرتدي ثياب العدل، ويسعى إلى نزع الظلم عمّن يتيقن بأنه ظُلم، بغض النظر عمّن هو ومن الذي يواجه ظلمه، فيُعرف مستر سميث بين الناس والصحف بأنه "سجين الظلم".

جلس الجميع منتظرين ذلك اللقاء ولكنه لم يتأخر كثيرًا، دخل مستر سميث برفقة مستر جاك وجلس مستر سميث على المقعد الرئيسي من طاولة الاجتماع وبجانبه على المقعد الجانبي جلس مستر جاك، ونحن نلتف حول الطاولة ننظر إليه بإمعانٍ وفضول. وبدأ الصمت يسود في المكان في انتظار كلمته والتي بدأها قائلًا:

- يسعدني أن ألتقي بكم وممتن لعملكم الجاد معي... اليوم اجتمعت بكم لأمرين، الأول لأتعرف عليكم عن قربٍ خاصةً أن الوقت لم يكن يسمح لأتعرف على عدد كبير منكم منذ أن بدأ العمل في مكتبي وتركت ذلك الأمر لمستر جاك.

نظرت إليه بإمعانٍ وودّت أن تقول له إنّ تولي مستر جاك مهام المكتب هو أسوأ قرار، ولكن سرعان ما أمسكت لجام لسانها قبل أن يسبقها بكلماته فتلقى ما لا يحمد عقباه.

و أكمل مستر سميث قائلًا:

- لقد اشتركنا جميعًا في نجاح ذلك المكتب و أنا فخور بكم.

استنارت القاعة بابتسامات ما زالت متمسكة بالصمت والإنصات لحديثه...

- أما الأمر الثاني أنني اليوم أتيت من قضية هامة بالنسبة لي فهي نتاج فساد يريد أن يجتاح حياتنا بالقوة، وعندما تفوّه صاحب الضمير وجد نفسه متهمًا بصناعة الفساد ذاته لكني أومن أن الحق لا يزول وإن صعُب إثباته، وتلك القضية التي أحدثكم عنها متعلقة بطبيب دفعه ضميره لكشف فساد المستشفى الذي يعمل به، فانقلب عليه الأمر، لكن اليوم الحق هو الذي ظهر وكسبت قضيته وظهرت براءته...

طار قلب نادية فرحًا عند سماع ذلك الخبر، ولمعت عيناها وكأن سعادة الدنيا اجتمعت فيهما. لكن سرعان ما صدمتها الحقيقة التي جعلت قلبها يحترق، وذلك عندما نظر مستر سميث إلى مستر جاك وقال له بابتسامة حانية:

- أود أن أشكرك على ذلك الإعداد الجيد للقضية وتلك المعلومات التي جمعتَها وساهمتْ كثيرًا في نجاحها.

ثم وجّه كلامه للجميع قائلًا:

- مستر جاك له الفضل في العديد من القضايا المهمة فقد أعدها بنفسه إعدادًا رائعًا.

أخذ الجميع يصفق لمستر جاك، أما هو فترتسم على وجهه ابتسامة خافتة موجهًا نظراته إلى نادية التي نزل عليها الكلام كالصاعقة ولم تتفوّه بحرفٍ قط، فقد كانت أنظاره الحادة تحمل العديد من معاني التهديد والسخرية فجعل قلبها يرهب الحديث.

وأكمل مستر سميث كلماته التي لم تسمع منها شيئًا، فهي ما زالت تحت تأثير الصدمة والخذلان لما لاقته، وغادر الجميع القاعة كلٌّ منهم متجهًا إلى عمله بعد مغادرة مستر سميث ومستر جاك القاعة، لكن نادية ما زالت في

مكانها، قدماها لم تستطيعا أن تحملاها.. ووقتها تذكرت ما كان يقوله لها مستر جاك حين كان يسلمها بعض القضايا، فكان يشدد عليها بتنبيهاته قائلًا:

- لا أرغب أن يعرف أحدٌ عن إعدادك لتلك القضية المهمة لأنها في غاية الخطورة، و إفشاء أيّ معلومة من الممكن أن يضر بالقضية لذلك لا تتحدثي عنها أمام زملائك.

الآن اكتشفت نواياه، وعلمت أنها كانت لعبة يريد أن يصل من خلالها إلى ما لا يستحقه بما لا يفعله، فهو لا يريد أن تصمت عن أسرار القضية ولكنه يريدها أن تصمت عن سلب حقوقها. قامت مستندةً على كلّ ما تقابله أمامها وشعرت أن الحزن يسري في عروقها حتى تمكّن منها، ولم تر أمامها سوى تلك الصورة المقتضبة التي تتكرر أمامها.. نظراته لها وعدم مبالاته لسلب مجهودها ونسبته لنفسه، فيا لها من حقيقةٍ موجعةٍ صدمت بها صدمةً أشعرتها بالخذلان!

خرجت من قاعة الاجتماع متّجهةً إلى مكتب مستر جاك بين مشاعر من الحزن والخوف والغضب وظلت تؤنب نفسها... لماذا صمتُّ؟ لماذا لم أتكلم وأدافع عن حقي؟

وما إن وصلت إلى مكتبه حتى دخلت عليه دون إذنٍ ناظرةً إليه نظرةً حادةً ممتلئةً بالغيظ، لكنه لم يبال بدخولها بدون إذنٍ كأنه ينتظر منها ذلك الفعل، ولم تهزه نظراتها الحادة التي تنبعث من عينيها كأنه لم يرها..

وخرجت نبرات صوته تجري بهدوء:

- جيد أنكِ جئتِ فقد كنت سأرسل لكِ على الفور.

زاد لهيب غيظها من هدوئه وأسلوبه الغريب، متهجمة عليه بكلماتها:

- كيف تجرؤ أن تنسب مجهودي إليك دون وجه حق، هذا تعبي ومجهودي الذي سهرت عليه، ألم يحدثك ضميرك ولو للحظةٍ في كلّ مرةٍ تسرق فيها مجهودي؟!

فامتلأت عيناه بشررٍ أسقط في قلبها الرعب وقد زادت نبرات صوته حدّةً لم تنقص من هدوء تعبيروجهه شيئًا:

- أنتِ ليس لك أيّ حق عندي.

ورغم قلبها الذي يملأه الخوف قررت أن تتماسك موجهة إليه نظرة حادة وألقت كلمات تعي معناها المستتروراءها:

- نعم ليس لي عندك أيّ حق بل حقي عند مسترسميث.

استنبط تهديدها غير الصريح.. ثم التف حولها مصدرًا ضحكة خافتة ومستخدمًا نفس طريقتها في إلقاء كلماتٍ يستتروراءها المعاني...

- أعلم أنك فتاة وحيدة تعيشين في لندن دون قريب، أنت مسكينة حقًّا، أنصحك أن تراعي نفسك جيّدًا.

فهمت ما وراء كلماته فامتلأ قلبها رعبًا أكثر حين واجهها بحقيقةٍ لم تغب عنها لحظة. وخرجت من مكتبه متّجهةً إلى مكتبها يكسوها الصمت شاردة الفكر، تفكر في تلك السعادة التي ظنت أنها على مشارف أبوابها فانقلبت إلى حقيقةٍ مُرّةٍ لم تعرف كيف تواجهها.

والتقطت أذناها كلام زملائها من حولها... كانوا يتحدثون عن تلك المكافأة الكبيرة التي حصل عليها مسترجاك معبرين بامتنانهم أنه يستحق، لم تستطع أن تشاركهم الحديث فتزيد من مرارتها التي استقرت في حلقها، أخذت حقيبتها وقلبها ممتلئ بالغيظ الذي كاد أن يسقطها أرضًا وذهبت طائعةً خُطى قدميها دون أن تعي إلى أيّ طريقٍ هي ذاهبة. ومضت في الطريق ترتسم أمامها صورته وتهديده المخيف الذي ما زال يتردد في أذنها.

وظلت تمضي حتى شعرت بالإرهاق، فركبت سيارة أجرة متّجهة إلى بيتها، وما إن وصلت إلى بيتها وأغلقت بابه بإمعانٍ كأنها تخشى أن يقاومها وينفتح، حتى استقرت على أقرب أريكة، تلك اللحظة التي انفجرت فيها ببكاءٍ جامحٍ يحكي مرارة ما ذاقته اليوم.

لم تنم تلك الليلة، فصوت كان يتردد بداخلها عن موطنها الآخر الذي عاش بداخلها كصورةٍ رسمتها مخيلتها من وصف أبيها.. الشرق.. حلب.. العائلة. ونهضت من سريرها بعد أن فقدت الأمل في أن يريحها عقلها ويسمح للنوم أن يزور أجفانها لعل قلبها يهدأ من إرهاق ما لاقته اليوم.

ذهبت إلى خزانتها وفتحتها برفق.. لتسمح لنسيم ذكرياتها أن يتدفق برفق.

أخرجت صندوقًا صغيرًا خاصًا بوالدها... كان ذلك الصندوق هو كلّ ما يملك من وطنه الغائب عنه.. فتحته برفقٍ كأنها تستعد أن ترتشف من بحر الغائب القريب والدها والغائب البعيد مدينتها التي لم ترها قط، وعائلتها التي لم تعرف صورهم إلا وصفًا من أبيها فرسمتهم في مخيلتها كما أحبت أن يكونوا، صندوق يحتوي على بعض الصور التي تحمل ذكريات طفولة وشباب والدها.. نظرت إلى ملامحه الشرقية الطيبة فانهمرت دموعها على ذلك القلب الحاني الذي فقدته وتركها وحيدةً بين دروب الحياة، لا تعلم ما هو مصيرها وكيف ستعيش في دنياها الغريبة عنها كوردةٍ تركها صاحبها دون عودةٍ منتظرةً مصيرها؛ فإما أن تذبل أو أن تهب عاصفة الحياة لتقطفها فتسقط أرضًا.. آملةً في قطرات مطر تروي وريقاتها وتشد جذورها فتشعر بالدفء.. الدفء، نعم إنه الشرق، إنه موطني الآخر وعائلتي.

أخذت تحدث نفسها وهي منحنية على صندوق الذكريات متسائلة:

- هل إن عُدت سأجدهم؟ أم أن الأيام تأخذ بين ذراعيها من تشاء من مكانٍ إلى مكانٍ كما تود أن تفعل بي، وهل جدي وجدتي ما زالا أحياء؟ وهل سيقبلان وجودي بينهما؟ أم أن غضب جدي على أبي سيمتد إليّ؟

راود عقلها أسئلة كثيرة، جعلتها في حيرة من أمرها، لكن الأمر أصبح أشبه بالقرار، ستعود إلى موطن قلبها وعقلها تاركةً الزيف خلفها وباحثةً عن الدفء الذي تفتقده.

تأملت الصور كأنها تحفظ تفاصيلها، ومن بينهم صورة جدها الذي يحتضن ابنه الوحيد.. كان يبدو من احتضانه له أنه يخشى أن يتركه، وكأنه يشعر بذلك الفراق الذي سيحول بينهما، ووقع نظرها على ورقةٍ مطويةٍ بها عناوين كثيرة، أخذت تقرأ كلّ عنوان، عنوان المنزل، والشركة، وبعض أقارب والدها وأصدقائه، فراودها سؤالٌ آخر.. لماذا كان والدها يحتفظ بتلك العناوين في صندوق؟ أكان يخشى أن ينسيه الزمان تلك الطرق التي تربى فيها؟ أم أنه كان يشعر أني سأعود فترك لي كلّ ما يدلني على عائلتي؟ أم أنه كان يرجو ذلك ولم يسع أن يقول لي؟

أخذت تضع كلّ شيءٍ مكانه بعنايةٍ ورفقٍ مغلقةً صندوق الذكريات عازمةً أن تُحوّله إلى و اقعٍ تجد فيه نفسها الضائعة بين الوحدة والخوف، وما إن أعادت الصندوق إلى مكانه قامت لعمل مكالمةٍ لشركة الطيران لحجز تذكرة العودة..

- آلو شركة إرث إير لندن ترحب بك.

- أريد أن أسأل عن أقرب موعد لرحلة إلى سوريا من فضلك.

- لحظة من فضلك.

معاودةً الحديث بعد لحظات:

- الرحلة القادمة ستكون في الساعة السادسة والنصف صباحًا ولكن يتو افر مقعدان فقط، فهل ترغبين في الحجز؟

- نعم، أريد أن أحجز تذكرةً واحدة.

- اسم حضرتك؟

- نادية سليم.

- حسنًا، نأمل من حضرتك الحضور مبكرًا لإتمام الحجز.

أنهت المكالمة وقد ملأها التوتر.. فكلّ شيءٍ يمضي بسرعة.

محدثةً نفسها: "سأواجه مصيري الذي اخترت أن أمضي فيه، سأرحل من هنا وسأبحث عن نفسي في موطني الغائب".

وظلت تُهدئ من روعها بتلك الكلمات التي تقولها لنفسها من لحظةٍ إلى أخرى وهي تقوم بإعداد حقائبها، ولم تنس أن تضع فيها صندوق والدها الصغير المحمل بذكرياته، وبعد أن انتهت ألقت نظرةً من النافذة لتودع وطنها الذي ولدت فيه وعلى جبينها يرتسم الحزن على تركه ويملأ قلبها مرارة الفراق، فذلك موطنها الذي شهد أيام عمرها بكلِّ تفصيلة، وشهد ذكرياتها مع أبيها.. وذلك موطنها الذي سيظل في أعماقها رغم الفراق المؤلم، فقلبها ما بين وطنٍ ولدت في أحضانه وبين وطنٍ يسكن في أحضانها.

وأخذت عيناها تتجهان نحو السماء الممتلئة بالغيوم متتبعة قطرات المطر المتساقطة على الأرض، وكان هذا آخر ما رأته من موطنها الذي ولدت فيه.

(٣)
رحلة العودة

كلما اقترب موعد اللقاء زاد نبض قلبها وزادت الأسئلة المتلاحقة في نفسها.

ودّعت بيتها الذي قضت فيه عمرها برفقة والدها.. فلم يكن فراقه أقل حزنًا من ما مرت به لكنها لملمت حزنها بين ضلوعها لعله يذوب في أحضان موطنها العائدة إليه.

وعلى متن الطائرة جلست على مقعدها حاملةً حقيبةً صغيرةً تحتوي على كتابٍ وبعض العناوين التي تركها والدها في صندوق خزانته وصورة والدها التي لم تفارقها قط، فسمعت نداءً يأتي من إحدى المضيفات:

"على السادة الركاب ربط الأحزمة".

ومع ذلك النداء بدأت رحلة العودة.. أخذت تحكم حولها حزام الأمان بل حزام الأمل، الأمل بأن تُحلِّق إلى الدفء الذي تبحث عنه. حلّقت الطائرة تشق طريقها بين السحب، وهي تنظر من النافذة التي بجوارها لترى مدينتها ومسقط رأسها التي تربت فيها، رأتها تتباعد شيئًا فشيئًا لتتحوّل إلى بقعةٍ صغيرةٍ تدخل في سرداب الذكريات هي الأخرى ليحل محلها موطن جديد لكنه ليس بغريب عنها أيضًا، وراحت تتأمل تلك الأرض التي أصبحت عُلبة صغيرة، ورأت نفسها وسط السحاب، ودّت لو عاشت فوقه بعيدًا عن الأرض.. كم هو حلم غريب! وسرعان ما شعرت بدوارٍ يزيد شيئًا فشيئًا لكنها ما زالت متمسكةً بهدوئها، ووضعت يدها على جبينها لتسند رأسها الذي يدور كلّ شيءٍ بداخله، حتى سمعت صوتَ متكلمٍ:

- هل أنتِ بخير؟

كانت أول كلماتٍ تسمعها بالعربية عن قرب والتي كانت تتوق أن تسمعها وتتحدث بها كما اعتادت مع أبيها، كان رجلًا يجلس بالمقعد المجاور لها، أجابت سؤاله:

- نعم بخير.. شعرت فقط ببعض الدوار.

- هذا أمر عادي عندما تحلق الطائرة، من الواضح أنكِ أول مرة تسافرين بالطائرة.

- نعم أول مرة.

- لا تقلقي.. قليلًا وسوف تشعرين بالراحة.

- شكرًا لك.

ثم أعاد ذلك الرجل نظره إلى تلك الأوراق التي كان يتصفحها.. ولاحظت أن كلماته تأخذ شكلًا من الوقار رغم صغر عمره. ولكن لفت انتباهها أمر... كيف علم أنها تتحدث العربية؟ فلم تكن قد أخذت تلك الخطوة بعدُ بارتدائها الحجاب رغم تمسكها بملبسها الفضفاض... كانت تخشى من معوقات كثيرة رغم نزوع نفسها إليه، أيبدو على ملامحها؟ ولكنها أقرب بالشبه من أمها أكثر من أبيها، أمها ذات البشرة البيضاء والعينين المائلتين إلى اللون البني الفاتح.

أخذت الابتسامة ترتسم على وجهها بإشراقةٍ كبيرة... الآن علمت من أين عرف أنها عربية... إنها حقيبتها التي اشتراها لها والدها، كانت حقيبةً مميّزةً وأكثر ما يميزها أنها على ذوق أبيها... نقش عليها اسمها بالعربية بخطٍّ كبيرٍ وأهداها إليها... كانت تحتفظ بها، لكنها أخرجتها لحملها في يدها أثناء سفرها، فكانت تلملم كلّ ما يتعلق بذكرياتها حولها ليكون حصنًا لقرارها حتى لا ترجع عنه. عادت إلى عالمها الذي ينتظرها، وعائلتها التي لا تعلم كيف سيستقبلونها لكنها تأمل خيرًا.

أفاقتها من شرودها يد صغيرة حنونة.. ذلك الطفل الذي أمسك بيدها كأنه يعرفها من قبل.

ابتسمت له ابتسامةً عريضةً مُتبادلةً معه الحديث:

- ما اسمك؟

- اسمي سلمان..

نطقها بابتسامةٍ حانيةٍ تحمل براءة الطفولة، بادلته بابتسامةٍ أخرى متسائلة:

- وكم عمرك يا سلمان؟

- عمري أربع سنوات.. سأعود إلى سوريا لأقضي إجازتي في بيتنا هناك مع والدي ووالدتي.. و أنتِ؟

ردت عليه وهي ما زالت تضم يده بين يديها..

- و أنا أيضًا ذاهبة إلى سوريا لأقضي إجازتي مع عائلتي ولكنها إجازة طويلة.

تركها واستدار إلى ذلك الرجل الذي بجوارها ممسكًا يده هو الآخر، وكأنه يرحب بكل رفاقه في رحلته. التفت الرجل شيئًا قليلًا إلى ذلك الطفل ناظرًا إليه في شرودٍ ووضع يده على رأسه ليتلمسها مع ابتسامةٍ خافتةٍ سرعان ما اختفت، ثم أعاد عينه إلى ما كانت عليه في أور اقه.

أنكرت في نفسها فعل ذلك الرجل مع الطفل متعجبة لتصرفه! وتساءلت في نفسها: "كم هو متناقض هذا الرجل! ففي موقفٍ يبدو ذا قلبٍ رحيمٍ وفي آخر أكثر حدّةً ولامبالاة"

وسرعان ما مضى الوقت لتصل الطائرة إلى موطن قلبها وعقلها.. نزلت من الطائرة لتخطو أول خطوةٍ في وطنها الذي شغل ذاكرتها في كلّ حين.. وتذكرت حنين والدها لذلك الوطن الذي لم يلتقِ به منذ أن تركه.

(٤)
أول لقاء

التقطت أنفاسها عند نزولها أول درجةٍ من سلم الطائرة.. كانت تشتاق لذلك الهواء الذي ملأ صدرها للتو، لتبدأ حكاية حبٍّ حقيقيّةٍ بينها وبين وطنها، فيخرج من زاوية الخيال إلى و اقعٍ ملموس.. ويتحرر من وصف الوطن الغائب إلى الوطن الذي يجري هواؤه في عروقها.

احتضنته بأنظارها الأولى كأمها التي رأتها فتعلقت بها بكل جوارحها.. إحساس غريب يُشعرها بالحنين المدفون بداخلها ويجعل كيانها يعود إليها.

خرجت من المطار لتبدأ أول خطواتها نحو بيت العائلة الذي لا تعرف فيه أحدًا، ولم تكن تعرف ما إذا كانت أبوابه ستُفتح لاستقبالها أم أن الخذلان الذي تركته في لندن سيلحق بها.

واستقر في قلبها مشاعر الرضا بكل ما سيحدث مهما كان نتيجته، فذلك كان قرارها منذ البداية. اتجهت نحو الرصيف الموازي لباب المطار وهي تبحث عن عنوان بيت العائلة في حقيبتها، وقفت على حافة الرصيف وأوقفت سيارة أجرة وكان على يمينها بخطوات ليست بقليلة ذلك الرجل الوقور الذي كان يجلس بجانبها في الطائرة يركب سيارته منطلقًا وسط الطريق، نظرت إليه متذكرةً ما فعله مع الطفل في الطائرة كأنه مشهدٌ مر من أمام عينيها كثيرًا... وسرعان ما وقفت سيارة الأجرة، ركبتها وتركت ما تفكر فيه وراء ظهرها حاملةً بكل جوارحها الأمر الأهم الذي جاءت من أجله، فهي في طريقها إلى المواجهة التي تزيد من نبضات قلبها كلما فكرت فيها. وهي تسأل نفسها: "هل سأجدهم؟ وكيف أواجههم بخبر وفاة ابنهم الوحيد؟

وهل سيصدقونني أم ستدور حولي الشكوك؟ كم هو أمر صعب ولحظات قاسية، لكن لدي ما يثبت صدق كلامي".

أخذتْ نفسًا عميقًا وظلت تتأمل الطرق ولكن ذهنها كان يشرد من لحظةٍ لأخرى نحو ذلك اللقاء.

وصلت إلى العنوان المكتوب لديها في الورقة في إحدى ضواحي حلب، ووجدت نفسها واقفةً أمام بيتٍ كبيرٍ ذي نوافذ طويلة مطلية باللون الأزرق، وفي محيط البيت نافورة مياه على شكل يد مبسوطة دون أن يسقط منها الماء، ويحيط ذلك البيت سور متوسط الارتفاع يتوسطه باب عريض مُكوّنٌ من أعمدةٍ ملونةٍ باللون الأبيض.. كلّ شيءٍ كان ساكنًا وكأن أحدًا لم يكن بالداخل، قد هجره أصحابه منذ زمن طويل، كذلك كانت توحي تلك الأشجار ذات الأوراق الهزيلة التي ذبلت من قلة الماء، والنافورة المغطاة بالغبار، وتلك النوافذ المغلقة وسط وهج النهار، ولم يكن أحد هناك لتسأله.

امتلأت نفسها بالحيرة والخذلان متسائلة: "ماذا أفعل بعد؟"

ألقت نظرةً حولها وسط الطريق ففوجئت برجلٍ كبير السن يبدو أنه أحد حراس البيوت المجاورة لبيت جدها متّجهًا نحوها قاصدًا الحديث إليها:

- هل تسألين عن شيء؟

- نعم، أسأل عن صاحب هذا البيت السيد عارف.

- إنه أغلق البيت وسافر منذ عشر سنوات إلى مدينة على الساحل.. هل تريدين شيئًا ضروريًا؟

- نعم، أنا قريبة له وأتيت من الخارج لأزوره ولم أعرف إلا هذا العنوان.

- إن في زاوية الطريق المكتب الخاص بالسيد عارف ويباشر أعماله السيد "رافح" بدلًا منه، ولكن السيد "رافح" أيضًا مسافر خارج البلد لبعض الأشغال وسيعود بعد عدة أيام. يمكن أن تسألي عن أيّ شيء عند أقارب السيد عارف في الجانب الثاني من الطريق وهم مشهورون هناك.

تلعثمت.. فكيف تلتقي بأقارب والدها وتُعرِّفهم بنفسها دون سابق إنذار.. هي لم تعلم عنهم شيئًا إلا القليل فوالدها كان كثير الحديث عن عائلته الصغيرة، عن أبويه... وكانت تعرف أن علاقة أسرته بأقاربه محدودة لا تحمل غير الود وصلة الرحم على فترات بعيدة، فذلك دائمًا ما يحدث بين العائلات حين تأخذهم الحياة بأشغالها... كان دائمًا يأسف لذلك الأمر الذي بات هو سمة ذلك الزمن، فهو أكثر من أدرك أن العائلة لا يعوضها شيء.

لا، لن تقدر على تلك المواجهة الصعبة، فعادت أدراجها للحديث مع الحارس الذي بات ينظر إليها بتعجب لصمتها الذي طال...

- أنا لم أعرف أحدًا هنا وكنت قاصدة السيد عارف، هل يمكن أن تعطيني عنوانه في تلك المدينة على الساحل؟

- أنا لا أعرف العنوان بالتحديد ولكنه في مدينة اللاذقية وبيته قريب من محطة القطار.. أعتقد لو ذهبتِ إلى هناك سوف يدلكِ الكثير على السيد عارف فإنه رجل طيب ومحبوب ويلتف حوله الكثير عندما يذهب إلى أيّ مكان.

- شكرًا لك.

شعرت أن قدميها مثقلتان وأن الأمل بدأ يتناقص بداخلها، فهي أتت لتلتقي بجدها وجدتها وكانت تريد أن يكونا أول من تلتقي، ولكن لعل الخير فيما حدث أنها اطمأنت أنهما بخير وأنها لم تقطع تلك المسافة الكبيرة هباءً وأن لها جذورًا وعائلة تجد الدفء بينهم.. ولكن ما زال اللقاء لم يحدث وهو أكثر ما يخيفها.

اتجهت نادية قاصدةً مدينة اللاذقية حاملةً حقيبتها في تعبٍ من أثر السفر الطويل والذي ما زال ممتدًا. ركبت القطار وكان الوقت يقترب من الغروب، وبدت السماء هادئة، ونسائم الهواء تتسلل من نافذة القطار

المجاورة لها فتلامس جبينها حتى أحست بالبرودة، ارتدت معطفًا لتحتمي به من تلك البرودة واستندت إلى حافة النافذة منهمكةً في التأمل فيما تراه من مناظر تخطف القلب، حيث الحقول التي تمتلئ بالخضرة، وبيوت صغيرة متباعدة بعض الشيء بعضها عن بعض، وعلى مسافةٍ ليست بقصيرةٍ رأت جبالًا عالية الارتفاع شامخة ومتتالية بمنظر بهيج وبينهم تلال صغيرة يحيط بها الزرع... أخذت نفسًا عميقًا يخرج من أعماقها التي تمتلئ بالسكون من تأثير تلك المناظر الجميلة الساحرة.

وتذكرت وقتها وصف والدها الذي كان يردده دائمًا.. "المدينة الساحرة"؛ فقد لمس قلبها ذلك الوصف بأدق تفصيلة.

أغلقت عينيها شيئًا يسيرًا من الوقت، ورغم تعبها لم يكن ذهنها يقبل النوم قبل ذلك الموعد الذي سعت إليه طويلًا.

وصل القطار إلى اللاذقية.. وعن مقربةٍ من محطة القطار رأت الساحل، رأت بحرًا بأمواج هادئة يحمل نسائم هواء برائحته الذكية التي تستقر في النفس فتنبعث فيه راحة واطمئنان. فحملت حقائبها عازمةً على السير والبحث عمّن يدلها على بيت جدها، ولكنها لم تبحث كثيرًا فكما قال لها ذلك الحارس أنه محبوب وتلتف الناس حوله في أيّ مكان، وبالفعل ذهبت إلى محل بائع الورد على مقربةٍ منها وسألته:

- هل تعرف رجلًا مسنًا يُدعى السيد عارف؟

أجابها بائع الورد مبتسمًا:

- نعم.. امضي في هذه الطريق وفي نهايتها ستجدين بيته يمينًا.

ابتسمت ووجهها امتلأ أملًا فقد وصلت أخيرًا إلى اللحظة التي سترى فيها جدها وجدتها، ولم تفكر في أيّ شيءٍ يقلقها في تلك اللحظة، وخطر على بالها أن تشتري وردًا، ليكون لقاؤهما الأول يبدأ بباقة ورد.

- هل لي أن أشتري باقة ورد؟

- بالطبع.. ماذا ترغبين أن تختاري من أنواع الورد؟

- أريد باقة من زهور البنفسج ومحاطة بزهور السوسن.

أعجب بائع الورد باختيارها معلقًا:

- و أيضًا السيد عارف يهتم بالورد كثيرًا.

أحست من تلك الكلمات بالتفاؤل فهذا يعني أن قلبه حنون، ولكن هذا الأمر يحيطه بعض الغموض.

سألت نفسها: "فإذا كان جدها محبوبًا وعطوف القلب فلماذا لم يقبل اعتذار والدها الحار في رسائله التي لم تنقطع إلا عند وفاته؟"

أخذت تفكر في ذلك التساؤل الذي ظل يشغل ذهنها وهي تسير في الطريق إلى بيت جدها، وكلما اقتربت زادت دقات قلبها وشعرت أن التوتر والقلق بدآ يسيطران عليها، وشعرت أنها لن تستطيع أن تنطق بكلمةٍ عند مقابلتها لهم.. وأصبحت خطواتها بطيئة ولكنها حالمة بذلك الدفء الذي تبحث عنه باعثةً إلى قلبها بكلمات من الأمل ليطمئن.

وصلت إلى البيت كما وصف لها بائع الورد.. وجدت بيتًا من طابقين مدهونًا باللون الأبيض وفيه نافذتان تتوسطان أعلى المبنى مفتوحتان على مصاريعهما وبداخل كلٍّ منهما ستائر من الحرير الأبيض تتطاير مع الهواء، ويحيط البيت حديقة جميلة يملأها الكثير من أنواع الورود المعطرة، ويحيط بهما أشجار عالية متساوية الأوراق ومتناسقة، فمن الواضح أنهما في عنايةٍ دائمة، وفي وسط الحديقة نافورة تشبه الساقية ينهل منها الماء فيحدث صريرًا. فالبيت بطابعه يشبه ذلك البيت الذي رأته في حلب ولكن الفارق بينهما أن الأول يسوده الصمت والحزن فهو وحيد دون راعيه، وأما هذا البيت فتنبثق منه الحياة بوجود صاحبه.. نعم فحتى البيوت التي هي أحجار تتأثر

بالأُلفة والدفء فتزدهر بوجود صاحبها، وتكاد تفارق الحياة بغيابه فتصبح مهجورةً خاوية.

شعرت بالفارق وأحست بمدى تأثير عائلتها الصغيرة حتى على الأشياء الصامتة الجامدة... لكنها أفاقت نفسها بحزمٍ فهي لا تريد أن تسارع بوضع الأحلام فتصدم، فيجب عليها أن تكتشف بنفسها.

فتحت الباب الحديدي الكبير فليس هناك حارس أمام البيت...

تقدمت وقدماها مثقلتان، وما لبثت أن وقفت أمام الباب ثم رنت الجرس بيدٍ مرتعشةٍ وبعد بضع لحظات فُتح الباب..

لقد رأته.. رأت رجلًا كبير السن يكسو شعره اللون الأبيض، بياضًا يضيء مع انعكاس الضوء، طويل القامة، متوسط البنية، ولكن اختلف شكله كثيرًا عما رأته في الصور مع أبيها عندما كان صغيرًا، يظهر في وجهه بعض التجاعيد التي تعكس عليه وقار الشيخوخة، وعيناه مكسورتان ممتلئتان بحزنٍ عميق.

هكذا يفعل مرور العمر بالأجساد، وهكذا يكون أثر حزن الفراق في القلب، يترك أثره على الملامح ويستوطن العيون لتحكي مرارة الفراق بنظراتٍ صامتة، ولكن تبقى الروح هي من تقاوم ما دامت الأنفاس تروح وتغدو، تتلمس حزنها لتحتضنه وتسكنه في مكنونها ولا تطلق سراحه للغرباء؛ بل تعكس ضوءها على من يمر عليها كأنها فرحة وضيئة حتى لا تُحمِّله عبء حزنها، ولا تكشف الستر عن القلب الحزين الذي يستتر خلفه.

هكذا كان يبدو على جدها من سيرته التي تحمل معنى المرح والحب بين الناس، وبين الحقيقة الخفية التي استوطنت عينيه اللتين يملأهما الحزن واللتين تراهما أمامها. نظر إليها قليلًا كأن قلبه يُحدِّثها.. يُحدِّث روحها التي يشعر أنها ليست غريبة عنه، وأخيرًا يتكلم:

- من أنتِ؟

داهمها الصمت كأنها فقدت النطق ولم تعِ الكلمات، ونسيت كيف تبدو الحروف كأنها لم تعرف معنى اللغة، ناظرةً بعينين ممتلئتين دموعًا.

نطقت مترددة تستجمع الحروف:

- أنا نادية سليم عارف.

كادت الدهشة تتحدث في وجه جدها، وظل يراقب ملامحها كأن قلبه يصدق ما قالته من غير برهان، وكأن عينيه تمتلئان من أثر ابنه الغائب عنه منذ زمن، ورغم ملامحها التي كانت تشبه أمها إلى حدٍّ كبيرٍ فإن روحها توأم أبيها فتعكس على ملامحها أثره وإن بدت لا تشبهه كثيرًا.

أعاد سؤاله في دهشة يصاحبها هدوء، ودموع سكنت عينيه: "من أنتِ؟"

ردت بنفس التأثير الذي بدا عليه:

- نادية سليم عارف بنت سليم عارف يا جدي.

كانت الكلمات كالصاعقة بالنسبة له ولم يشعر إلا وهو يحتضنها بضمة حانية شعر فيها بأنه يحتضن قلب ابنه.. وهي أيضًا شعرت بالدفء، شعرت كأنها مُعلّقةٌ في حضن أبيها الذي فقدته. انهمرت الدموع على وجنتيها، ووقفت لتكمل حديثها الذي لا تعلم أين بدايته لكنها كانت مصرة أن تجعل عقله يتيقن من هويتها كما تيقن قلبه في أول اللقاء.

- لدي كلّ ما يثبت أني ابنة سليم عارف، أرجوك أحب أن تطلع عليه..

وأمسكت بحقيبتها، لكنه لم يبالِ لما تقول على الأقل في الوقت الحالي فإحساسه هو أكبر إثبات له بأنها حفيدته، وكأنه كان ينتظرها بل كان ينتظر ابنه فأتت قطعة منه.

قال لها بصوت حانٍ: "ادخلي".

دخلت وهي ما زالت تتأمل جدها وبداخلها دفء يكاد يملأ كيانها ويفيض من عينيها، واستقر قلبها من نبضاته المتلاحقة.

جلسا على أقرب مقعدين مطلًا عليها بنظرات تجمع حنين سنوات مضت من الفقد.

سألها بصوت هادئ:

- كيف حالك؟

- بخير عندما رأيتك يا جدي.

سرّته الكلمة.. "جدي"، وكأنه وجد هويته... شيءٌ قد غاب بداخله فوجده للتو.

شعرت أنها ليست فقط من كانت تبحث عن هويتها وعن الدفء الذي سافرت الأميال لتصل إليه؛ بل كان جدها أيضًا يبحث عن هويته الساكنة بداخله حتى ظن أنها لن تخرج للحياة مرة أخرى، فأتت هي بمفتاحها السحري لتخرج هويته الدفينة.

هكذا تكون الهوية.. فهي ليست الإنسان لمجرد ذاته بل هي الإنسان في أعين من ينتمون إليه.. وفي قيمته التي تؤثر في حياتهم وفي وجوده الذي هو جزء منه.

سألها في تردد:

- و أبوك كيف حاله؟ ولماذا لم يأتِ معك؟

داهمها الصمت مُوجِّهةً بصرها نحو الأرض لعلها تخفي مرارة الإجابة التي تحملها فيتكفّل الصمت وحده بالرد... أخفت عينيها وقد أوشكت على البكاء، ولكنه أحس بما وراء صمتها..

- كنت أشعر أنه سيفارقني للأبد، فإحساس الأب لا يمكن أن يكذب. مرت أيام كنت أشعر فيها بضيقٍ يملأ قلبي، وشعرت بأن الدنيا تضيق وأن لا

شيء يربطني بها سوى أيام تزفر فيها أنفاسي حتى يحين الأجل، وكدت أشعر بحرقة شديدة ويقين بداخلي أني لن أرى ابني مرة ثانية.

سألته متعجبة:

- ولماذا لم تجب عن رسائل أبي؟ فلقد قال لي أنه أرسل إليك الكثير من الرسائل.

فنظر إليها في صمتٍ للحظاتٍ ثم أجابها وقد أبعد عينه عنها:

- كنت مخطئًا.

لم تشعر بذلك التوتر الذي اجتاح وجه جدها حين أجابها، لكنها استاءت كثيرًا عندما تأكدت أن رسائل والدها كانت تصل إلى جدها بالفعل ولم يرد عليها. بيد أن لقاءها به الممتلئ بالحنين والعطف، واستقباله الذي ملأ قلبها فرحةً جعلها تقنع نفسها بأنه ربما هناك شيء قد تغير.. وأن يكون بالفعل قد شعر بالذنب لعدم رده على رسائل أبيها، وعزمت على أن تترك هذا الأمر جانبًا.

ثم نظرت إلى باقة الورد التي بيدها.. كانت تظن أن الورد هو أول من يتحدث لكن القلب تسلل وبدأ بالحديث. فنظرت إلى جدها باسطة يدها بباقة الورد:

- تفضّل.

انحنى إليها قليلًا وقبّل رأسها، وسألها بابتسامةٍ يغمرها الحزن:

- أتحبين الورد؟

- نعم، إنه قادر على قول ما لا نستطيع قوله أحيانًا.. وسمعت أنك تحب الورد أيضًا.

- نعم، ولكن من أين عرفتِ؟

- من بائع الورد.. وشعرت من كلامه أنك محبوبٌ بين الناس ور أيت ذلك بنفسي...

استدارت ملتفتةً تبحث عن شخصٍ آخر... تبحث عن جدتها... تُرى ماذا سيكون موقفها حين ترى حفيدتها لأول مرة؟ هل سيسبق قلبها القيام بالمهمة فتتيقن من أنها حفيدتها كما كان الأمر مع جدها؟ أم أنها ستفاجأ بأمرٍ آخر؟ كانت تلك التساؤلات تراودها فتجعل للقلق نصيبًا مما شغل بالها، فبادرت تسأل جدها:

- لدي شوق أن أرى جدتي، أين هي؟

ولكن الجواب عن سؤالها المعلن وأسئلتها المختبئة بداخلها كان على غير ما توقعت... جوابٌ جاء به الخذلان ليحل محل القلق الذي كان بداخلها.. فقد بادرها جدها بقوله:

- كان قلبها منفطرًا على فراق ابنها، فساءت صحتها بعد سفره. فاقترح الأطباء أن تبتعد عن البيت على أمل أن تتحسن صحتها، لكنها أبت أن تترك البيت الذي حمل كلّ أنفاسه وذكرياته الجميلة، وكلما ساءت حالتها أكثر تداعت مو اقفه معها، وتنفست رائحة فراشه فيستقر قليلًا نبض قلبها الذي سقم، ولكنها لم تتحمل الفراق أكثر فتوفيت بعدها.

ومكثت بمفردي بين ذكريات البيت الذي خلا من أحبابه وما بقي لي إلا أثرهم، لكن بعد مرور سنواتٍ شعرت أني لا أتحمل أن أمكث هناك خاصةً بعدما باتت سني تكبر وأخذت أشيخ فجئت إلى هنا منذ عشر سنوات وقررت أن أستقر في هذا المكان، وتركت كلّ أعمالي لـ"رافح" مدير أعمالي، يديرها ويبلغني بالتفاصيل وقد أتدخل عند الحاجة.

كانت نادية منصتةً بحزنٍ شديد، وهي تتذكر حديث أبيها عن ذلك البيت السعيد الذي يملأه الفرح والضحك، ولم تتصور أن تلك السعادة قد انتهت هكذا.

أراد جدها أن يكسر ذلك الصمت الحزين قائلًا:

- وكيف عرفتِ أني هنا في تلك المدينة؟

أفاقت من حديث نفسها قائلة:

- من هناك.. من حلب فقد دلني أحد حراس البيوت المجاورة.

- ألم تقابلي "رافح"؟

- لا، لم أقابله، فقد قال لي الحارس أنه مسافر.

- فعلًا قال لي حين حدثني أنه سيسافر، لقد نسيت.

اتجهت إليه قائلة:

- لدي الكثير من الأشياء أود أن أحكيها لك ليطمئن قلبك أكثر من ناحيتي.

لكن المفاجأة ما زالت مشوشة على أفكار الجد، ولم يرد أن يسمع أيّ شيء قبل أن يعي ما حدث ويتمالك نفسه من السعادة التي غمرت قلبه، وهو يصدقها فإحساسه لا يكذب أبدًا.

لكنها كانت مصرة على ذلك الأمر.. ورأت من الأفضل أن يكون الوضوح سمة أول لقاء، هكذا قالت لنفسها... وزادت تلك الرغبة بعدما رأت الفرحة التي تغمر جدها كي تجعل في قلبه يقينًا أكثر بتلك الفرحة ليطمئن قلبه، أخرجت من حقيبتها صور والدها مع جدها وأور اقًا تثبت نسبها إلى جدها وقالت:

- هذا كلّ ما لدي من أوراق وصور تثبت شخصيتي فتفحّصها كما تحب.

نظر إلى الأوراق على عجلٍ ووقف عند صورة ابنه يتأمل وجهه ويلامس صورته التي رافقته لسنوات. ثم قال وهو يتمالك شعوره:

- سأطّلع على كلّ شيء، لكن الآن يجب أن تستريحي من سفرك ثم نتحدث معًا.

كان يظهر عليها إرهاق شديد وعيناها مجهدتان تبدو تحتهما هالتان سوداوان من أثر قلة النوم والتعب؛ فأخذها إلى غرفتها لتستريح.

- استريحي جيّدًا فيبدو عليكِ الإرهاق ولكن سأحضر لكِ العشاء قبل أن تنامي فبالتأكيد أنتِ جائعة.

نظرت إليه مبتسمةً فابتسم لها بنظرةٍ حانيةٍ وتركها لتتفقد أشياءها. ظلت تتأمل الغرفة من جميع جوانبها.. غرفة ذات أساس بسيط لكنه أنيق ومنسّق، بها أثاث خشبي من العاج.. يتوسط الغرفة سرير عليه غطاء أبيض مزركش وفي جانبيه خزانتان صغيرتان كلٌّ منهما تحمل مصباحًا على شكل نجمة مضيئة إضاءة خافتة، وبجانب إحداهما نافذة كبيرة عليها ستائر بيضاء، وفي أحد جوانب الغرفة منضدة تعلوها ساعة حائط كبيرة قيّمة يبدو أنها من الطراز القديم، ويقابلها في زاوية أخرى أريكة صغيرة، ويعلوها على الحائط لوحة كبيرة بالرسم الزيتي لسيدة تحمل باقة ورد تتأمل فيها، وبجانب الأريكة مقعدان وتلفاز، وأمامها منضدة منثور عليها بعض الكتب. وعلى الأرض سجاد أبيض ناعم عليه ورود ملوّنة بارزة يغطي جميع أركان الغرفة، ابتسمت وهي تتأمل غرفتها التي شعرت فيها بالهدوء واتجهت نحو النافذة وأطلت منها على مكان واسع، لكن الليل كان دامسًا لا يسكنه إلا ضوء خافت من نور القمر.

فتحت حقيبتها لترتب أغراضها ثم اتجهت لتأخذ حمامًا دافئًا.. وعندما خرجت وجدت عشاءً على المنضدة قد أتى به جدها وتركها لتستريح.. فابتسمت وشعرت بعطفه الذي لم تكن تتوقع أن يكون بذلك القدر.. ساردة

في مخيلتها ذلك اللقاء الذي لم يمر عليه إلا قليل من الوقت فأثره ما زال في قلبها وما زالت تشعر بالسعادة والطمأنينة.

كانت حقًا جائعةً لكن إرهاقها كان أكبر بكثيرٍ فأكلت القليل ثم خلدت إلى نومٍ عميق. لكن جدها ما زال مستيقظًا يتأمل ما حدث، فلم يعِ قلبه ما حدث ولم يدر أيشعر بحزنه على فقدان ابنه أم بفرحته بوجود حفيدته وأن له أحدًا قريبًا منه بعد تلك العزلة الطويلة.. عزلة القلب التي كانت تسكنه وإن كان بين أفواجٍ من الناس.. وظل يفكر في ذلك الحال الذي تبدّل رأسًا على عقب.. وحياته التي أضاءتها حفيدته رغم مرارة فقده لابنه.. وظل يقرأ ما تركت له من أوراقٍ فيها ما يدل على أنها حفيدته من ابنه الذي فارقه دون لقاءٍ ثانٍ في تلك الحياة.. ويتأمل صوره التي تجمعهما، تلك الصور التي رافقته أكثر منه... ظل طيلة الليل متقلبًا بين أحزانه و أفراحه... ولكن الليل لا بدّ أن يليه صباح فيحتضن من سيبقى.

****

صباح يوم في حياة جديدة كانت بشراها بالأمس في ذلك اللقاء... فتحت عينيها على ضوء الشمس الذي يتسلل من نافذة غرفتها، وظلت عيناها تتأملان الغرفة للحظاتٍ كأنها لم تعِ ما حدث، ثم ابتسمت ابتسامةً عريضةً حين طاف أمام عينيها صورة جدها بتعبير فرحته بقدومها بالأمس، وشعرت بالاطمئنان من ذلك التعبير الذي يملأ قلبها دفئًا، ويبعث في نفسها أملًا في تلك الحياة الجديدة.

نهضت من سريرها متّجهةً إلى النافذة لترى ما كشفته الشمس وما حجبته ظلمة الليل بالأمس، أزاحت الستائر ليقع نظرها على جمالٍ خلّابٍ لتلك الطبيعة التي تحيطها من كلّ مكانٍ فيمتلئ قلبها سرورًا مما تراه من جبال عالية تكسوها خضرة النباتات، ويُزينها حمام يحلق فوقها، وتلك

التلال الصغيرة التي تضفي جمالًا آخر. تاهت بين كلّ ما رأت عيناها حتى أفاقت على صوت دقات الباب فاتجهت نحوه فإذا بجدها يقابلها بابتسامة:

- صباح الخير.

- صباح الخير يا جدي.

- هل ارتحتِ جيّدًا في نومك بعد رحلتك الطويلة؟

- نعم.

والتفتت بعينيها نحو النافذة ثم عبرت عن ما ترى ببهجة: "إن المنظر بديع".

- صحيح، وسوف تشاهدين أشياء أجمل، سأصطحبك إليها لتتعرفي على كلّ شيء، وأنا على يقين أنك سوف تستمتعين كثيرًا، ولكن يجب علينا الآن أن نأخذ الإفطار، معذرةً لا توجد لدي خادمة وأحب أن أفعل كلّ شيءٍ بنفسي خاصةً أني أعيش وحيدًا.

نظرت إليه مبتسمةً قائلة:

- لكنك الآن لست وحيدًا وسأساعدك في كلّ شيء.

امتلأ وجهه سرورًا:

- أنا أمتن لذلك بالتأكيد.

ثم استقام في وقفته كضابطٍ يأمر ذويه قائلًا بابتسامةٍ يملأها الوقار:

- إذًا هيا أمامي لنُحضِّر الإفطار.

ورغم أن عمره في منتصف الستين فإنه كان يُقبل على الحياة بقلب يتسم بالحيوية حتى في حركته التي تظهر نشاطه، وكأنه أقبل على الحياة مرةً أخرى ليعيش ما اختزله من فرحةٍ بعدما كان قد فقد الأمل في أن تعود إليه أبدًا.

وقف يُحضِّر الطعام وقال لها:

- احضري أنتِ الأكواب لصب القهوة، سوف تجدينها يمينًا على ذلك الرف.

- حسنًا.

وفي إحدى الزوايا لمحت بابًا مفتوحًا على مصراعيه، فتركت ما بيدها متّجهةً إليه ومترقبة، إلى أين سيؤدي ذلك الباب، فأدهشها المنظر حين وجدت نفسها في حديقةٍ واسعةٍ بها أشجار كثيرة من الفاكهة والخُضر وبعض أنواعٍ من نباتات الأعشاب، ومجموعات من الورود ذوات الرائحة العطرة، ووسط تلك الحديقة استراحة دائرية مصنوعة من خشب الخيزران، وفوقها مظلة كبيرة تغطي الاستراحة بأكملها. كانت تتأمل المكان وهي في اندهاشٍ تامٍّ وجدها من خلفها يترقبها:

- هل أعجبتك الحديقة؟

جاء صوت جدها من خلفها ليوقظها من دهشتها فاستدارت إليه بدهشةٍ تزينها ابتسامة عريضة قائلة:

- رائعة.. فأنا لم أرمثل ذلك الجمال من قبل.

- أعددتها بنفسي وزرعت فيها أشجارًا من الفاكهة والخضر والنباتات فآخذ منها كلّ ما أحتاجه.

- هذا جميل.. أنت رائع يا جدي.

لاحظت عينيه ينبض فيهما الحزن، تلاحقها نبرة صوته المنخفضة:

- كان هذا يلهيني كثيرًا عن حزني لفقد أسرتي الصغيرة.

نظرت إليه وقد امتلكها الأسف على ما بات فيه من ألمٍ أمضاه الفراق في قلبه، لكنه لاحظ ذلك فأسرع إلى إخفاء ذلك الحزن وقد رسم ابتسامة على وجهه:

- هيا سريعًا، الإفطار سيبرد.

(٥)
حياة هادئة

جلسا يرتشفان القهوة معًا في غرفة الجلوس، وشعرت برغبتها في التحدث مع جدها عن أشياء كثيرة تحتاج أن تعرفها، ولم تتردد أن تبدأ حديثها:

- هل أنت غاضب من أبي؟

- أبوك كان عنيدًا جدًّا، كان طموحه يمثل له كلّ حياته، في البداية حلم كثيرًا بأن يكون لديه شركة لصناعة السيارات، ولكن حلمه اتجه إلى سفره للخارج والعمل بإحدى الشركات الكبرى لصناعة السيارات.

- نعم، ولقد حقق ذلك فعلًا.

نظر إليها بابتسامة:

- يسعدني ذلك.

ثم تنهّد بعمقٍ وهو شارد فيما يقوله:

- ولكن طموحه لم يأخذ في الاعتبار أن قلوبنا قد تنفطر عليه في غيابه.. جادلته كثيرًا حتى لا يسافر وهددته بأني سأغضب عليه ولكن لم يتفهّم ما أقول وحقّق ما حلم به وسافر دون أن نعلم، ومع حزني وغضبي الشديد منه فإنه كان يختبئ بداخلي شعور بالفرح لأنه حقق ما يريد.

- وكذلك أبي كان ينفطر قلبه لبعده عنكم، ولكنه قال لي أنه حاول كثيرًا أن يتودد إليكم ويعتذر لكم عن سفره دون علمكم.. فلماذا لم ترد على رسائله يا جدي ليطمئن قلبه؟

صمت جدها قليلًا وكأنه يخبئ شيئًا بداخله.. ولكنه قطع صمته بحزنٍ وهو يردد نفس جملته التي قالها من قبل بنبرة مرتبكة: "كنت مخطئًا".

تلك إجابته كلما ألقت عليه ذلك السؤال، إجابة بنبرة حزينة يخفي خلفها الكثير من الألم.

احتضنها بنظرةٍ كلها عطف وهو يقول لها:

- أنا سعيد بمجيئك.. فكم أحتاج إلى وجودك كثيرًا، فلم أكن أعرف أني ما زلت على قيد الحياة إلا بمجيئك.

- و أنا أيضًا يا جدي كنت أحتاج أن أكون معك لأكون بخير.

شعر قلبها براحةٍ كبيرةٍ حين علمت أن لها دورًا في حياة جدها وأنها ذات قيمةٍ في حياته، انتهى الحديث بعرفان كلٍّ منهما للآخر.. عرفان لحياة تجددت، وربما حياة أصبح بها حياة.

خرجت إلى الحديقة لتتأمل فيها بعينٍ أخرى.. عين لا يلهيها عقل بتفكيره ولا قلب بمخاوفه.

كانت الألوان بديعة، وأوراق الشجر متداخلة، تعكس مشهدًا أدخل في قلبها السرور وجعلها تشعر بالحيوية والسعادة، وظلت تلف وتركض حول أشجارها ناظرةً إلى السماء تتنفس رحيق هوائها المختلط بعطر الزهور. خجلت من نفسها، ماذا تفعل؟ فهي أصبحت كالطفلة وكأن حياتها الجديدة أشعرتها أنها بدأت مراحلها العمرية من جديد.

كانت ترتدي ثوبًا ورديًا طويلًا ذا أكمام، جعلها تبدو كالفراشة ذات الأجنحة، خفيفة تروح وتغدو بين الأغصان، تذهب تارةً إلى أشجار الفاكهة لتلمس فاكهتها النضرة، وتارةً إلى الورود لتشم رائحة عطرها. وجلست على حشائش الحديقة وهي ما زالت في شجن التأمل، تأخذ نفسًا عميقًا يشعرها بالراحة وكأن كلّ ما شعرت به خلال أيامها الماضية أصبح كالثلج الذي يذوب ليترك قطراتٍ من الندى تجف بعد فترةٍ قصيرةٍ وتمضي.

وبينما هي تعيش وسط إحساسها الهادئ، رأت أمامها سيدة كبيرة بدينة بعض الشيء ترتدي فستانًا طويلًا مزركشًا، تقف أمامها وتنظر إليها بابتسامةٍ عريضةٍ قائلة:

- أنت نادية؟ تبدين فعلًا جميلة كما وصفك جدك.

نهضت من جلستها تنظر إلى السيدة وبوجهها تساؤل، لكن سرعان ما زال عنها تساؤلها عندما أكملت السيدة حديثها:

- أنا مدام صفية جارة جدك، أسكن في البيت المجاور، ونأتي بين الحين والآخر أنا وزوجي لنطمئن عليه لأننا نعرف أنه يعيش وحيدًا، جدك رجل طيب جدًّا وودود، اتصل بي ليحدثني عن خبر مجيئك، حقيقةً اندهشت لكن في نفس الوقت سعدت كثيرًا، يبدو أنك رائعة وملبسك أنيق وتختارينه بعناية، سعدت جدًّا برؤيتك.

قابلت نادية حديث السيدة صفية بابتسامةٍ وشعرت أنها سيدة ودود.

- أهلًا بك مدام صفية و أنا سعيدة برؤيتك أيضًا.

احتضنتها السيدة صفية بضمة حانية وهي تقول:

- أشعر أننا سنكون صديقتين..

ثم غمزت لها بعينها وهي تضحك ضحكةً تعكس طيبة قلبها قائلة:

- فأنا صغيرة في السن ولكن بدانتي تظلمني بعض الشيء فأظهر بعمر أكبر من الو اقع.

ضحكت نادية وسرتها خفة ظل تلك السيدة قائلة: "بالتأكيد".

اتجها إلى الداخل فقابلهما السيد عارف فابتسم حين رآهما موجهًا حديثه لنادية:

- أظن أنك سعدتِ بمعرفة السيدة صفية فهي سيدة ودود خفيفة الظل وتحب الحديث كثيرًا.

بادرت السيدة صفية:

- شكرًا لك، أنا الذي سرني معرفة نادية كثيرًا فهي لطيفة وشعرت أني أحببتها منذ أن رأيتها.

وجلسوا يتبادلون الحديث لفترةٍ كبيرة، شعرت وقتها بمعنى الدفء وأدركت أن الحياة تكون أجمل مع من تحب، وأن تلك اللحظات التي تجمعهم تُحسب عمرًا من السعادة، فلحظة السعادة عمر.

مرت عدة أيامٍ وهي تشعر بالسعادة، تشعر بالألفة مع جدها وبزيارات السيدة صفية وزوجها التي كانت تزيد من مرح البيت وتعلو فيه الضحكات بحكاياتهم.

*****

اعتادت كلّ يومٍ أن تعاون جدها في تهذيب حديقة المنزل وري ثمارها بالماء بعدما ينتهيان من ترتيب المنزل وإعداد الطعام. وأعدت العشاء بنفسها... فقد كانت تفعل ذلك مع والدها حين تحب أن تفاجئه.

- إن الطعام طيب.

- شكرًا.. اعتدت أن أحضر الطعام أنا و أبي معًا وبعد وفاته اعتدت أن أعده لنفسي.

ابتسم بنظرةٍ شاردةٍ يتذكر فيها طباع ابنه التي ذكرته بها ابنته.. قائلًا:

- لقد كان يحب أن يفعل كلّ شيءٍ بنفسه ويتعلم الكثير، فقد كان ماهرًا في أشياء كثيرة.

- نعم إن أبي كان رجلًا عظيمًا.

ساد الصمت للحظات كلٌّ منهما يرتشف حساءه بشرودٍ أخذ عقلهما لذكرياته ثم قطع الجد ذلك الصمت:

- ما رأيك في السيدة صفية وزوجها، أليسا ودودين؟

- نعم إنها سيدة ودود وعطوف وخفيفة الظل، وزوجها رجل طيب، وطباعهما متقاربة إلى حد كبير.

- صحيح فهما لم يتركاني يومًا منذ أن جئت إلى هنا وتعرفت عليهما وعرفا قصتي...

وجاءت كلماته التالية بنبرة حزن: "ربما أن جدك مثير للشفقة".

لاحقت كلماته بالنفي. فكيف يرى في نفسه ذلك؟ فالإنسان لا يستطيع أن يرى نفسه بأعين الناس، ولكن يراها بأعين حالته التي يعيشها.

قالت له:

- بالعكس... فالكثير يحبك ويحب أن يلتقي بك، قالت ذلك السيدة صفية، وكذلك الحارس الذي قابلته في حلب، و أيضًا بائع الورد حين سألته عن العنوان بدت على وجهه ابتسامة حين ذكرت اسمك.. فالجميع يحبك.

ابتسم وهو يقول لها:

- كنت لا أتوقع أني رجل مهم إلى ذلك الحد.

تلك قدرته التي تغلب حوارهما دائمًا، يبادر في إبعاد الحزن عن حديثهما عندما يتطفل، فيختتمه بابتسامةٍ ولا يسمح لغيرها أن يختتم حديثهما.

كلٌّ منهما كان يأخذ الآخر من دائرة الحزن التي عاش فيها طويلًا ويجعله يرى في نفسه شكلًا آخر أكثر أملًا و إقبالًا على الحياة.

في الصباح الباكر جاءت السيدة صفية بابتسامتها المعتادة وألقت التحية على نادية وجدها.

قال السيد عارف:

- السيدة صفية ستذهب إلى السوق لشراء بعض احتياجاتها، وسألتني قبل أن تأتي هل ترغبي أن تذهبي معها؟

و افقت نادية، وشعرت برغبتها في التعرف على تفاصيل المدينة، وأن تخرج إلى الحياة بعد عودتها فقد قضت أغلب أيامها السابقة داخل البيت، استأذنت السيدة صفية لتجهز نفسها للخروج معها.

- خذي وقتك.. سأنتظرك.

جلست بجوار السيدة صفية في سيارتها تتابع تفاصيل الطريق وهي شاردة تصف بكلماتٍ عابرةٍ ما كان يردده والدها عن مدينته.

ابتسمت السيدة صفية وهي مترقبة الطريق، ثم قالت:

- يسعدني سرورك بوجودك هنا، حقيقةً وجودك أسعد الجميع خاصةً جدك، فلا تعلمين قدر حاجته إليكِ.

- أنا أيضًا أحتاج لوجودي معه.

التفتت إليها السيدة صفية في اهتمامٍ بما شعرت به من جملتها ثم قالت:

- من الواضح أنكِ تألمتِ من أمور كثيرة.

تنهدت...

- نعم، لم أكن لأقرر أن أترك بلدتي التي ولدت فيها وذكرياتي مع والدي في بيتنا الذي تربيت فيه وفي كثير من ضواحي لندن، وكذلك طموحي الذي كنت أسعى لتحقيقه إلا بعدما تألمت كثيرًا ومررت بظروفٍ صدمتني.. شعرت أني أحتاج الاحتواء، أحتاج أن أبحث عن هويتي فتركت كلّ شيءٍ وجئت إلى هنا من أجل ذلك.. من أجل الدفء.

وبدأت تحكي تفاصيل ما حدث لها مع مستر جاك.. كانت السيدة صفية تصغي لها باهتمامٍ حتى انتهت من رو ايتها المؤلمة.

- ولماذا لم تدافعي عن حقك؟

- لم أعِ بأي شيء، غير أنني عزمت على العودة.

- بل إنه الخوف يقتل الحق أحيانًا.

ترددت الكلمة في مسامعها لتواجه بداخلها حقيقة ما حدث... تواجه نفسها بما قالته وتلومها، لكنها أبت أن تكمل حديث النفس، فهي لا ترغب إلا ذلك الهدوء الذي تسكن فيه منذ أن أتت دون أن يعكر صفوها أيّ شيءٍ آخر تفكر فيه.

وأرادت أن تغير الحديث فسألتها:

- هل يزور جدي أحد من أقاربه؟

- لا.. لا أحد من أقاربه يأتي لزيارته، لكن كلّ فترةٍ يزوره الدكتور مراد يقضي معه اليوم كله ثم يذهب، إنه رجل وقور ومهذب أرتاح أنا وزوجي إليه كثيرًا. و أيضًا يتردد عليه السيد "رافح" مدير أعماله للحديث معه في أشياء تخص أعماله التي يحتاج لموافقته عليها، لكن ما إن ينتهي سبب زيارته يذهب عائدًا إلى حلب.

نظرت إليها تنبئها بأمر يلح عليها:

- حقيقةً لم أرتح إليه لكن جدك يثق به.

استمعت نادية إلى السيدة صفية بإصغاءٍ شديدٍ ولم تُعلِّق على شيءٍ مما سمعت لكنها ظلت تفكر فيه.

استقرت السيارة في طريقٍ واسعةٍ مصفوفةٍ بالمحلات على الجانبين.. ذكّرتها تلك الطريق بلندن، ذلك الشارع الذي فيه المقهى الذي كانت تحب الجلوس فيه فشعرت بالحنين رغم قصر زمن الفراق، لكنها أرادت أن تصنع ذكرياتٍ أجمل وتجعل من حياتها الجديدة حياةً تخلو من الألم.

وهل هناك حياة تخلو من الألم، حياة مشبعة بالسعادة فقط دون أن يتخللها الحزن والخوف؟ ظل ذلك التساؤل يتردد في نفسها حتى تركته للأيام فهي أصدق من تجيب.

كان يومًا ممتعًا بصحبة تلك السيدة الطيبة خفيفة الظل، شعرت فيه نادية بالراحة والألفة.

وفي المساء جلست مع جدها تقص عليه ما دار في يومها برفقة السيدة صفية، وتجاهلت ذلك الحوار الذي كان بينهما في أول اللقاء.

كان جدها يتأمل وجهها وفي عينيه سرور لفرحتها وعينيها اللامعتين وهي تتحدث بحماس، واختلط بسروره شعور بالحنين لابنه الغائب.. فكم تشبهه روحها!

كانت تنتظر تعليق جدها على ما قصته لكنه لم يجبها إلا بابتسامته التي لازمته منذ أن بدأت حديثها، فقد كان يشغل عقله أمرٌ هام...

وبعد لحظاتٍ من الصمت قال:

- لقد اتخذت قرارًا.

نظرت إليه في انتباهٍ وعلى وجهها تساؤل:

- ماذا؟

- قررت أن نعود إلى حلب معًا لنعيش في بيتي.. بيت جدك ووالدك فأنا الآن أرغب في العودة ما دمت ستكونين معي.

فاجأها الأمر، فلم يخطر على بالها أن جدها يمكن أن يقرر ذلك رغم أن لديها شغفًا وحنينًا أن ترى البيت الذي ولد فيه أبوها. كانت الراحة تغمر قلبها لذلك القرار ورغم ذلك كانت تشعر بارتباط جدها بذلك المكان الذي يسكن فيه حاليًا فقالت:

- كما تحب، ولكني أدرك ارتباطك بهذا المكان.

- نعم، ارتبطت به كثيرًا، فكل جزء فيه اخترت تجهيزه بنفسي، وحديقته جزء مني أعددتها بكل حواسي ومشاعري، ولكن في حلب كلّ ذكرياتي التي كنت أخشى مرافقتها بمفردي، لكنك ستكونين معي، أما هذا البيت فمن الممكن أن نأتي يومين من كلّ شهرٍ لنقضيهما هنا.

ابتسمت محتضنةً جدها:

- كما ترغب يا جدي.

- حسنًا سنذهب في الصباح.

- هل سنخبر أحدًا بعودتنا لينتظرنا؟

- لا، سنعود دون أن نخبر أحدًا... لكنك ستتحملين كثيرًا معي في ترتيب المنزل..

ثم نظر إليها مبتسمًا:

- ألم تعديني من قبل أنك سوف تساعدينني في كلّ شيء؟

ابتسمت وهي تبدي مو افقتها:

- نعم سأساعدك في كلّ شيء.

شعرت أنها أصبحت شخصًا آخر وأنها أكثر ثباتًا على قدميها.. فقد كانت تبحث عن ذلك الثبات المنبثق من الروح بعد أن كانت تتألم من وحدتها، كانت تبحث عن كيانها المنطفئ التائه الذي يبحث عن روحه لينتمي إليها.

وقضت ذلك المساء مجتمعة مع جدها والسيدة صفية وزوجها... ذلك الجمع الذي ستُحرم منه. فكم هو مؤلم ذلك الفراق الذي بدا هو مصيرها على مر حياتها راجية من الله أن لا تذوقه مرة أخرى.

وفي الصباح الباكر وقبل أن تودع تلك المدينة التي لم تمضِ فيها إلا أيامًا ذهبت إلى البحر... بدا ساحرًا في عينيها.. فتبادلت معه الحديث، وأحست أنها تشتهي أن تحتضنه بين ذراعيها، أحبت أن يكون هو آخر ما تراه عيناها في تلك المدينة على أمل ألا يكون آخر لقاء.

(٦)
في بيت الذكريات

مضت في طريقها إلى حلب من نفس الطريق التي أتت منها لكن شتان بينهما، ففي المجيء كان يمتلكها الخوف من ذلك اللقاء الذي كانت لا تعي ما هو مصيره.. كانت بمفردها، وكان كلّ شيءٍ معلقًا على أملٍ ليس بأكيد. أما الآن فهي مع جدها في طريق تعرف إلى أين هي ذاهبة وحياة باتت تتخيلها لترسم تفاصيلها، متشبثة بيد جدها كأنها طفلة تخشى أن تضل الطريق.

وفي حلب فُتحت أبواب البيت الذي أغلقه الحزن و أقبلت إليه الحياة من جديد، دخلت نادية وجدها متأملين أرجاءه المحملة بالذكريات، فأمسكت بين يديها صورة معلقة على الحائط بها والدها حين كان شابًا، فظلت تنظر إليه وتتأمله وهي تبتسم وعيناها تفيضان بالدموع، ويرقبها جدها الذي لم يكن أقل منها في مشاعره وقد امتلأ قلبه بخليطٍ من الحزن والفرح.

كان بيتًا كبيرًا كلّ ما فيه من أثاث يحمل التراث القديم، وتلك الجدران العالية، وذلك المكان الواسع الذي تقف فيه، يحيط به أثاثٌ مُنسّقٌ ذو ألوان هادئة.. ذلك الصالون الذهبي بجواره راديو كبير، وعلى بعد خطواتٍ منه توجد استراحة أخرى، وبينهما منضدة كبيرة تعلوها فازة خاوية من الورود، ويتوسط ذلك المكان الواسع نافذتان كبيرتان، ذهبت إليهما وفتحت كلّ واحدةٍ منهما على مصراعيها فأقبل الضوء يسري داخل المكان كأنه مشتاق إليه؛ مشتاق إلى ذلك المكان الذي لم يسكنه منذ زمن. وفي الطابق العلوي غرف عديدة من بينها غرفة والدها والتي اختارتها لتمكث فيها.

نظر جدها إليها متسائلًا بابتسامة:

- ما رأيك في بيت العائلة؟

- إنه جميل أشعر في أنفاسه بروح أبي.

- نعم كان يملأه ضجّةً وضحكًا.. وكان هو روح البيت.

قاطعهما مجيء أناس أحاطوا بالمنزل حين رأوه مفتوح الأبواب مسرورين بقدوم صاحبه ومهنئين بالعودة من جديد، بعضهم من الجيران والآخرون أناس يعملون بالقرب من البيت.

شعرت وقتها بقدر حب الناس لجدها وشعرت بالفخر يملأ نفسها وهي ترى سرور الناس يسكن عيونهم ونبرات حديثهم تحتويها الفرحة.

اتصل السيد عارف بأم حبيب التي كانت تقوم بشئون البيت قبل أن يغادره بسنواتٍ عديدةٍ عازمين على تنسيق ذلك البيت لتعود إليه الحياة.

صعدت نادية إلى الطابق العلوي لتبدأ في تنظيفه وتتحسس آثار والدها التي ما زالت موجودة. وهي الآن في غرفة والدها، وكأنه اللقاء من بعد فراقٍ طال منذ أن تركت بيتها في لندن، فهناك أيضًا كانت كلّ ذكرياته التي تركتها منفطرة القلب، والآن عاد إلى قلبها ذلك الشعور بأنه قريب منها حين تتأمل كلّ ما يخصه، ها هو مكتبه، وكتبه التي ما زالت على نفس وضعها قبل أن يتركها، وتلك أدوات الصيد.. فقد كان يحب الصيد، كان يرى فيه جزءًا من نفسه حين يصيب هدفه، فهو أيضًا كان حريصًا على أن يحقق طموحه. وأيضًا لا تخلو غرفته من كتب الميكانيكا، فتجد في مكانٍ كتابًا في علم الهندسة الميكانيكية، وفي آخر صورة لرسم تفاصيل سيارة، أشبه ما كان في لندن، فقد كان يُعلِّمها ويشاركها في أفكاره وعلمه بذلك العلم، ليس لكي تخلفه في مهنته، ولكنه كان يحب أن تشاركه كلّ شيءٍ فهي ابنته الوحيدة.

وهي أيضًا كانت تستمع إليه بإنصات، ليس لحبها لذلك العلم الذي كان أبعد ما يكون عن طموحها، ولكن كانت تحب جلسته وحديثه، كانت تحب ذلك الشعور بالاعتزاز بأنه هو أبوها.

كان قلبها يمتلئ بالاطمئنان كلما تأملت تلك الأشياء فكلّ شيءٍ حولها كان يلمسه ويحمل ذكرياته.

وشاركتها في تنظيف حجرتها أم حبيب وهما يتبادلان الحديث في أمور كثيرة، فرأت فيها سيدةً طيبةً وبسيطة، حديثها يحمل الخيرفكان هذا يضيف إلى قلبها الطمأنينة...

مر الوقت بين التنظيف والترتيب وبدأ البيت رويدًا يعود إلى ماضيه. وفي المساء أعدت أم حبيب العشاء بينما كانت نادية قد أخذت حمامًا دافئًا ولبست ثوبًا بنيًّا طويلًا فبدت متألقةً في تلك الليلة رغم تعبها الشديد. نزلت الدرج متّجهةً إلى غرفة الطعام وهي تشعر أنها ولدت من جديدٍ في حياةٍ جديدةٍ وهادئةٍ يكسوها الأمل.

أقبلت على غرفة الطعام.. كان جدها ينتظرها بينما أم حبيب تضع الطعام على المائدة.

أقبلت عليهما بابتسامةٍ وهي تحييهما... كانت الابتسامات على وجهيهما كأنهما يشعران بنفس ما تشعربه.

نظر السيد عارف لأم حبيب قائلًا: "اشتقنا إلى طعامك يا أم حبيب".

نظرت أم حبيب إليه سعيدة:

- شكرًا سيد عارف كم أنا سعيدة برجوعكما.. أخيرًا فتح البيت من جديد بعد أن يئست أن يعود مرةً أخرى مفتوحًا.

كان الجواب حقيقة ما يشعربه السيد عارف..

- أنا أيضًا سعدت لذلك.

وأثناء تناولهم العشاء دخل السيد "رافح" وهو يلقي عليهم التحية، وبينما كان جدها مشغولًا بالترحيب به نظرت نادية إليه في صمتٍ تتأمله...

رجل متوسط الطول له شارب كث وعيناه ذواتا نظرةٍ قويةٍ حادة، ويبدو أنه على أعتاب الخمسين فهو يقارب عمر أبيها، وكان يرتدي بذلةً رماديةً ويحمل حقيبةً سوداء.

دعاه السيد عارف:

- اجلس يا "رافح" تناول معنا العشاء.

- أشكرك. ولكن عجبت عندما سمعت بمجيئك، هل حدث أمر هام؟

- لا، لم يحدث ولكني قررت أن أعود إلى بيتي مرةً أخرى وأستقر فيه.

بدت على وجه السيد "رافح" الدهشة، وبدت على نادية علامة استفهام من تلك الدهشة، تذكرت حديث السيدة صفية عنه، بأنها لا ترتاح هي وزوجها للسيد "رافح".. ولكنها قررت أن تترك ما سمعته جانبًا ولتحكم بنفسها فيما تراه منه مع الأيام.

نظر السيد "رافح" إلى نادية وعلى الفور قال السيد عارف له:

- أعرفك بنادية ابنة سليم ابني.

نظر السيد "رافح" إليه بكل دهشة: "من؟"

قال السيد عارف:

- أعرف أنه أمر غريب لكنها ابنة سليم ابني حقًّا..

وأشار إليه قائلًا:

- اجلس وتناول معنا العشاء وسأخبرك بكلّ شيءٍ بعد الطعام.

- لا، أشكرك.. اسمح لي سأنتظرك في المكتب.

وظلت نادية تفكر فيما رأته من دهشةٍ واضطرابٍ على وجه السيد "رافح" ولكنها حدثت نفسها... قد يكون هذا من أثر الخبر فلا أحد كان يتوقع وجودي من الأساس.

عند اجتماعهما في المكتب أرادت نادية أن تحضر ذلك اللقاء.. كانت تريد أن تستكشف من نظراته وردة فعله عند سماع قصتها كلّ ما يجول بنفسها وما يدور في خاطرها من تساؤلاتٍ غامضةٍ تحتاج إلى وضوح. كان ينظر إليها من حينٍ لآخر بنظرةٍ لم تستطع تفسيرها.. فهو ما زال لا يصدق أنها تنتسب إلى السيد عارف بأية صلة.

سمع من السيد عارف كلّ ما قصّه، فكان سمعه منتبهًا للحديث رغم شرود عقله الذي كان يبدو عليه كأنه يربط أحاديث بعضها ببعض، فبادر بسؤال نادية:

- هل معك ما يثبت هويتك و انتسابك إلى السيد عارف؟

نظرت إلى جدها وبدأت علامات الاستفهام تتكاثر في ذهنها وهي تسأل نفسها أهو ذلك الشخص المخلص الذي يخشى على جدها وحريص على مصلحته؟ أم أن هناك أمرًا خفيًّا لم تعِ حتى الآن ما هو؟ لكنها هدّأت من روعها، فقد خشيت أن تكون قد ضخمت بداخلها الموقف نتيجةً لحديث السيدة صفية، بينما الأمر قد يكون طبيعيًّا بل يجب أن تحيي في ذلك الرجل حرصه على مصلحة جدها.

انتبهت عند حديث جدها:

- الأوراق كلها معي و أنا تأكدت بنفسي.

- ولكن اسمح لي أن أتأكد من صحتها بنفسي.

ثم نظر إلى نادية مبتسمًا:

- معذرة فأنا أحب السيد عارف وأعتبره بمثابة أبي وأود أن أطمئن على كلّ ما يخصه، فأرجو ألا يزعجك طلبي.

- لا أبدًا لم يزعجني، بل أشكرك على حرصك.

العجيب أن تلك العلامات التي توحي بكثير من الأسئلة الغامضة تجاه ذلك الرجل لم تشعر أنها راودت جدها قط، وشعرت أنه يثق به تمام الثقة.

ورغم محاولة تصديقها أن الأمر طبيعي فإن تفكيرها لم يتوقف عن مراجعة ما حدث من ذلك الرجل الذي تدور حوله تساؤلات كثيرة في ذهنها لا تستطيع أن تتجاهلها، خاصةً عندما تتساءل بينها وبين نفسها لماذا بدا عليه ذلك التوتر الذي أصابه حين كشف له جدها عن هويتها؟ ولماذا ذلك الاهتمام بأمرها والذي لم تجده من أحد غيره؟ أفلا تكفي ثقة جدها فيثق هو الآخر مثل كلّ من عرف بالأمر؟!

شعرت أن الأيام قد أخفت عنها أمرًا لم تكن تدركه، أحست أن الخوف يتسلل لقلبها، فكيف أقنعت نفسها بأنها ستأتي لحياة لا يشوبها القلق ولا تحمل غير أيام من السعادة لا يتخللها أيّ خوف يعكر صفوها، وهل تسمي تلك "حياة" أم أنها كانت تبحث عن جنّةٍ بين أرجاء الأرض؟! لكنها أبت أن يتسلل ذلك الخوف لقلبها مرةً أخرى، وحدثت نفسها ألا تسبق الأحداث.

في الصباح فتحت عينيها على شعاع الشمس الذي يتسلل من النافذة.. فاتجهت ناحية الضوء مطلة من نافذتها فكان المنظر بديعًا، لا يقل جمالًا عن مدينة اللاذقية التي قضى فيها جدها عشر السنوات الأخيرة. فتلك المدينة أيضًا ساحرة بكل ما فيها.. تكسوها الجبال الشاهقة فتبدو في منظر ساحر جذاب، وتحيطها خضرة تكسبها نضرةً وهدوءًا يملأ النفس.. تأملتها كثيرًا وأخذت نفسًا عميقًا. وما لبثت تنظر إلى الأسفل حتى وجدت جدها يعمل في الحديقة فقد كان عازمًا أن تعود تلك الحديقة إلى زينتها التي نُزعت منها بعد رحيله.

ابتسمت ابتسامةً عريضةً وبدا عليها السرور وذهبت لترتدي ثيابًا تساعدها على العمل مع جدها في الحديقة..

كانت جميلةً في زيها... ذلك الفستان الأسود الذي ترتديه، كانت تبدو كأنها إحدى أزهار تلك الحديقة.

استقبلها جدها بابتسامةٍ وعينٍ تملؤها فرحةٌ كانت تراها في عينيه كلما أقبلت عليه، وكأنه في كلّ مرة يرحب بها في حياته التي ملأتها هي، قال لها:

- ما رأيك فيما أنجزت؟ استيقظت منذ السادسة صباحًا أعمل في الحديقة.

نظرت حولها متأملةً كلّ شيءٍ بابتسامةٍ ثم أجابته:

- هذا رائع!

كان كلّ شيءٍ قد بدا منظّمًا، وتلك الأغصان التي كانت تتساقط منها أوراق ذبلت قد تجهزت لأوراق أخرى أكثر خضارًا، وتناثرت أزهار ما زالت في بداية عمرها تتفتح مع الأيام، عملا فيها معًا حتى أصبحت جنّةً ترتاح إليها النفس بعد أن كانت يكسوها الحزن.

وأدركت نادية خبرة جدها الكبيرة في أنواع الزهور فله معهن حديث خاص... يتحدث معهن حين يرويهن فيبادلنه بطيب عطرهن حديثًا يفقهه هو..

وبعد الظهر دخلت تعد الغداء مع أم حبيب، ووقفت تقلب الحساء وتتبادل الحديث معها:

- حدثيني عنك يا أم حبيب.

ابتسمت أم حبيب قائلة:

- زوجي يعمل في مصنع الأرز، ولديّ ولد وبنت، أما ولدي فمتزوج ولديه ابنان ويعمل مع أبيه في المصنع، وأما ابنتي فمتزوجة ولديها أربعة أبناء وزوجها يعمل موظفًا في القطارات.

نظرت نادية إليها وهي تسألها:

- وماذا تفعلين مع هذه العائلة الكبيرة؟

- إنهم يملؤون علينا البيت كلما جاؤوا لزيارتنا.. فيتعلقون بجدهم ويلحون عليه كي يروي لهم القصص القديمة ويلاعبهم، فهم نور البيت وفرحته.

ابتسمت نادية لما روته لها أم حبيب واستحضرت في ذهنها جدها ومدى فرحته لقدومها، وفي تلك اللحظة دخل السيد عارف المطبخ ونظر إليهما وعلى وجهه ابتسامة قائلًا:

- أين الغداء؟ ألم ينتهِ بعد؟

أشارت أم حبيب بوجهها مو افقة:

- سأحضره إلى المائدة على الفور.

ثم نظر إلى نادية قائلًا:

- لقد جاءنا ضيف.

وطلب من أم حبيب أن تزيد على الغداء طبقًا آخر للضيف.

نظرت نادية إليه وهي تسأل نفسها: "من هو ذلك الضيف الذي أتى إلينا؟ فقد يكون أحد الأقارب". فقاطعها صوت أم حبيب عندما أمسكت يدها وهي تقول لها بابتسامة مازحة:

- هل من الممكن أن تتركيني أكمل تحضير الطعام بمفردي؟ فلقد قمتِ بواجبك على أكمل وجه.

اتجهت مع جدها لغرفة الطعام فرأت شخصًا بداخل الغرفة، نظرت لهذا الرجل الذي بدا لها طويل القامة يرتدي معطفًا أسود ويبدو على وقفته الوقار، ولكنها عندما اقتربت أكثر كانت المفاجأة قد أدهشتها وجعلتها لا تستطيع التحرك من مكانها، فهو ذات الرجل الذي كان يجلس بجوارها في الطائرة، ذلك الرجل الذي يحتويه الغموض، فهي ما زالت تتذكر موقفه مع

الطفل الذي كان معهم على متن الطائرة، عندما نظر إليه طويلًا وبادره بتحية جامدة، رغم موقفه اللطيف الذي بدر منه معها عندما شعرت بالدوار أثناء تحليق الطائرة.

ظلت تنظر إليه طويلًا مندهشة من تلك الصدفة الغريبة.

أما هو فيبدو عليه أنه لم يتذكرها، ولا شك في ذلك فقد كان منغمسًا في أور اقه التي كانت معه أثناء الرحلة.

قطع ذلك الصمت السيد عارف قائلًا:

- أُعرِّفك بدكتور مراد، جارنا في البيت المجاور.

ثم التفت إليه ليبادله التعرف بها:

- هذه نادية حفيدتي، أعرف أنك لم ترها من قبل فهي أتت من لندن منذ وقتٍ قريب.

تبادلا التحية... وجلسا على مائدة الطعام وهي ما زالت تحاول أن تستوعب تلك المفاجأة، كان جدها يتحدث معه في أمور شتى وهي تنصت لحديثهما دون أن تشارك بكلمة، فقط كانت تتأمل كلامه وتصرفاته، كان حديثه أكثر رزانة ونبرة صوته مريحة، ورغم ردوده الموجزة فإنها شعرت بالود الذي بينه وبين جدها كما شعرت بتقدير جدها له.

حدثها السيد عارف:

- الدكتور مراد يعمل طبيبًا في أحد المستشفيات هنا، ولكنه كثير السفر إلى لندن للقيام بأبحاث هناك.

قال مراد موجهًا حديثه إلى نادية:

- لقد تقابلنا في الطائرة في الرحلة العائدة من لندن منذ أسبوع.

أصابها تصريحه بالدهشة التي استطاعت بالكاد أن تخفي معالمها على وجهها لكنها ملأت كلّ كيانها، إنه يتذكرها جيّدًا، فكيف بدا عليه في أول الأمر أنه لا يعرفها؟ قد أزعجها ذلك التصرف الذي يوحي بلامبالاة وكأنه لا يريد أن يتذكر ذلك الوقت أو يذكره.

لكنها تذكرت حديث السيدة صفية فهو ذلك الشخص الذي ذكرت أنه يتردد على جدها في المدينة لزيارته، "دكتور مراد" هو الاسم الذي ذكرته وكان حديثها عنه مريحًا، ولكن ماذا عن ذلك التصرف الذي بدر منه، ألم يكن هو الآخر يصدق بهويتها؟ أم أنه من الأشخاص الذين لا يبالون كثيرًا بمعرفة من حولهم من أناس جدد. لكنها لم تُعر الأمر كثيرًا من الاهتمام فهو ضيف جدها ولم يكن الأمر يستحق ذلك القدر من التفكير ففضلت أن تنسحب مستأذنةً بالذهاب.

وكأن جدها كان يشعر بكل ما يجول بداخلها فأذن لها على الفور.

صعدت الدرج وهي تتنفس بعمقٍ عازمةً ألا تشغل تفكيرها بشيءٍ غير أن تستمتع بتلك اللحظات التي تعيشها ببيت جدها ووالدها بين ذكرياته ولمساته الباقية بكلّ شيءٍ في ذلك البيت. كانت ترسم في مخيلتها كيف ستبدو أيامها سعيدة، وماذا ستفعل ليعود لذلك البيت ضحكاته وكأن والدها لم يتركه قط؟ فعزمت أن تُعوّض جدها بإحساس السعادة الذي فقده، فما زال حديثه يتردد في أذنها عن تلك الحياة التي كانت تملأ ذلك البيت، فحدثتها نفسها أن جدها لم يقرر العودة إلا لأنه شعر بأنها ستعيد الحياة لذلك البيت، وقررت ألا تخذله بل هي في حاجةٍ لذلك أيضًا.

وبعد وقت قصير سمعت وهي في غرفتها صوتًا خافتًا، يأتي ذلك الصوت من مدخل البيت، فأطلت من شرفتها فإذا بجدها يودع الدكتور "مراد" عندما عزم على الذهاب، بينما رأت من بعيد السيد "رافح" قادمًا فقابل دكتور "مراد" بتحيةٍ قبل أن ينصرف ثم دخل مع جدها.

بدأ يشغل تفكيرها زيارة السيد "رافح" فلماذا أتى لزيارتهم؟ أهي زيارة عمل أم أنه بحث عن هويتها وتأكد أنها حفيدة السيد عارف؟ وكيف كان وقع تلك الحقيقة على نفسه؟

اتجهت نادية إلى غرفة المكتب متشوقة لتلك الإجابة عن كلّ الأسئلة التي بداخلها تجاه ذلك الرجل، فكان السيد "رافح" يجلس مع جدها يتحدثان عن المشروع الخاص باستيراد بعض المنتجات الغذائية والذي يقوم السيد "رافح" بإقناع السيد عارف به، همّت بالدخول مستأذنةً فإذا بالسيد "رافح" يقف ليستقبلها بحفاوةٍ وترحيب:

- أهلًا يا ابنة أخي، فأنا سعيد بقدومك إلى بيت جدك و أبيك.

ثم أكمل حديثه إليها معتذرًا:

- أرجو أن تلتمسي لي العذر وتقبلي اعتذاري إن كنت غليظًا بعض الشيء أمس في حديثي، لكنك أكيد ستتفهمين الموقف.

تلقت نادية كلماته بارتياح، فكم كان قلبها مضطربًا من استنكاره لهويتها أمس، رغم ثقتها بهويتها فإنها كانت تخاف أن يبدو شيءٌ يهز ثقة جدها بها ولا ريب أن جدها سيصدق السيد "رافح" بحكم ثقته فيه فقد رافقه سنين طوالًا، أما هي فكلّ علاقتها بجدها هي تلك الأيام التي قضتها معه، أيام قائمة على مشاعر الجد التي هي الإثبات الموثوق له بهويتها أكثر من كلّ ما لديها من أوراق، كانت تخشى على جدها وكانت تخشى على تلك السعادة أن تنهار، لكن قلبها ملأه الارتياح بعد ذلك اللقاء.

ابتسمت مؤكدةً كلامه:

- أدرك خوفك على جدي وحرصك على أموره وهذا الشيء يطمئنني بالتأكيد.

قاطعت أم حبيب حديثهما بدخولها، فطلب السيد عارف منها أن تعد لهم القهوة، ولكن نادية استأذنت جدها بأنها تفضل أن ترتشف القهوة في استراحة الحديقة لتتركهما يتبادلان حديثهما عن العمل، ولكن حقيقة الأمر أنها تريد أن تتنفس الهواء بعمقٍ بعد راحتها إثر ذلك اللقاء الذي قضى على قلقها.

كانت تلك الليلة أكثر هدوءًا خاصةً بعدما أخبرها جدها أثناء العشاء أنه سيذهب إلى مكتبه في الصباح ليباشر عمله من جديدٍ كما كان من قبل، وشعرت في حديثه بالسعادة جراء ذلك القرار، تلك السعادة التي لامست قلبها عندما أحست أن وجودها قد ترك أثرًا في حياته، وأن شيئًا بدأ يتغيّر للأفضل، فقد بدا جدها أكثر إقبالًا على الحياة. كان هذا الشعور يرضي قلبها، فكم هو جميل ذلك الشعور أن يجد الإنسان ذاته في حياة الآخرين، أن يكون لوجوده أثر في حياتهم وأن تلامس قلوبهم السعادة حال وجوده.

وما كادت تضع رأسها على وسادتها حتى راحت في سباتٍ عميقٍ لم تفق منه إلا عندما فتحت عينيها فوجدت نور الصباح قد استقبلها بيومٍ جديد.

أقبلت على اليوم أكثر إشراقًا فأخذت حمامًا دافئًا، وارتدت فستانًا أبيض، وشعرت أنها تريد أن تلهو مع الشمس وتقبل على الحياة بكل مشاعرها وحواسها.

كانت الساعة قد قاربت الثامنة صباحًا وتذكرت أن جدها سيذهب إلى شركته فأسرعت على أمل أن يكون ما زال موجودًا لتودعه في أول يومٍ يقبل فيه على العمل، نزلت الدرج على عجلٍ وإذا بجدها يخرج من مكتبه حاملًا حقيبته ومعطفه، وتوجهت عيناه إليها وبدت على وجهه ابتسامة... فعاجلها بقوله:

- صباح الخير.

- صباح الخيريا جدي، سعدت أني لحقت بك، كنت أود أن أودعك قبل أن تذهب.

وعانقته مودعة.. فقال لها مبتسمًا:

- يسرني ذلك.

ودعته متمنيةً أن يكون يومًا جميلًا قد أقبل على جدها فكم كانت تسعدها سعادته.

اكتفت بشرب فنجان القهوة واتجهت لتروي الحديقة متبادلةً مع زهورها حديثًا خافتًا لا يسمعه إلا قلبها ورحيق تلك الزهور. وشعرت برغبتها أن تتأمل تلك الجبال الشامخة، فذهبت لترتدي معطفها وأخبرت أم حبيب أنها ستمضي بعض الوقت لتتأمل تلك الطبيعة عن قرب، ثم خرجت متّجهةً إلى تلك الجبال الشامخة.

قطعت مسافةً طويلةً لم تشعر بها؛ فقد أخذتها تلك المناظر التي تحيط المكان وقلبها يملأه السكون حتى وجدت نفسها في مكانٍ شاسعٍ فيه الكثير من الأشجار العالية والخضرة التي تحيطها من كلّ مكان، وأمامها مرتفعات تميل عليها غيوم السماء فتبدو ذات منظرٍ جميل. ولم تر أحدًا يمر على ذلك المكان إلا ويلقي عليه نظرة تأمل، وكأنه يأتي ليرتشف قلبه اطمئنانًا في ذلك المكان فيتبادل معه حديث السلام، سلام النفس وإن كان عابرًا. أخذها ذلك التأمل وتلك الطبيعة التي دعتها إلى صمتٍ طويلٍ دون أن تشعر بالوقت، حتى قاطع تأملها صوت:

- إن المناظر الخلابة تجعل الإنسان أكثر سكونًا أليس كذلك؟

التفتت سريعًا فإذا به دكتور مراد، ذلك الرجل التي تشعر دائمًا بغموضه واقفًا ينظر إليها في ثبات، فانتفض قلبها فكيف علم أنها هنا؟ ولماذا أتى إلى ذلك المكان؟

لكن الجواب جاءها سريعًا:

- ذهبت لأطمئن على السيد عارف فقالت لي أم حبيب أنه ذهب إلى شركته و أنكِ خرجتِ لتتأملي الطبيعة، أنا أيضًا أحب أن آتي إلى هنا من وقتٍ إلى آخر.

نظرت إليه ولم تنبس ببنت كلمةٍ رغم ما يجول بداخلها من تساؤلات حول غموضه الذي يزعجها، وتلك التقلبات في تصرفاته منذ أن رأته.

حاولت أن تتحدث بكلماتٍ قليلة:

- نعم، إنه مكان جميل!

ابتسم ابتسامةً خفيفةً، ثم قال:

- ولكن أحيانًا بعض الأشخاص تأسرهم المباني الشامخة أكثر من الجبال، ويفضلون الزحام على تلك الأماكن الهادئة فلا يلجؤون إليها إلا عندما تهلك قلوبهم.

نظرت إليه وقلبها يتّقد غيظًا مما قاله، فماذا يعني حديثه؟

قالت:

- ليس كلّ الأشخاص متشابهين فيما يفضلونه.

نظر إليها بنفس ابتسامته التي أخذت طابع عدم الاكتراث بما قالت، ثم قال: "ربما".

فضّلت أن تعود إلى البيت حتى لا يمتد الحديث أكثر من ذلك، استأذنت منه، ذهبت وهي صامتة، ويجول بخاطرها ما ردده من كلماتٍ لا تعلم إن كان يقصدها بها أم لا!

وصلت إلى البيت فوجدت جدها قد عاد، قابلته فاستقبلها بالترحيب والسعادة ترتسم على وجهه فسُرّت لذلك. وأثناء الغداء بدأ جدها يقص عليها ما رآه من إنجازاتٍ في شركته وجولته التي قام بها خلال هذا اليوم..

وقد أبدى رضاه عن السيد "رافح" الذي أدار عمله بنجاحٍ خلال تلك السنوات الماضية. كانت تشعر بشغف جدها لعودته إلى أعماله بعد طول غيابٍ ولكنها شعرت أيضًا بإجهاده الذي بدا عليه بعد عودته، قالت:

- أنا مسرورة لعودتك إلى أعمالك يا جدي ولكن يجب أن تستريح بعض الوقت.

- نعم سأستريح ولكن ليس بعد أن أطلع على بعض الأوراق التي أتيت بها لأدرسها اختصارًا للوقت، فهناك مصنع الأرز لم أزره بعد وسأذهب إليه في الغد.

ساد الصمت قليلًا ثم استأنف السيد عارف الحديث:

- سيأتي الدكتور مراد في المساء ليتناول معنا العشاء، كم أقدر هذا الرجل فلم يقطع زيارتي حتى بعد أن غادرت هذا البيت وسافرت.

شعرت أن قلبها يضطرب فهي لم ترغب بلقائه مرةً ثانيةً على الأقل في يومٍ واحد، فقد اغتاظت من طريقة حديثه معها اليوم. نظرت إلى جدها باحثةً بداخلها عن أيّ عذرٍ لكيلا تحضر ذلك العشاء، فقالت:

- نعم، ولكن لدي بعض الأغراض كنت أود أن أرتبها في غرفتي الليلة وستأخذ مني وقتًا.. اسمح لي أن أعتذر الليلة عن العشاء.

نظر إليها جدها لحظة، وكأنه يتبين من صدق حجتها على ملامحها، ثم حرك رأسه مو افقًا قائلًا:

- كما تحبين.

وقررت أن تترك كلّ ما يقلقها، أن تبتعد عن أيّ غموضٍ يجعل التساؤلات تتزايد في رأسها.

(٧)

سعادة يلاحقها خريف

جلست فترةً طويلةً في غرفتها ترتب بعض أغراضها التي لم يتسع الوقت لأن ترتبها من قبل، وقد احتفظت ببعض الكتب الخاصة بوالدها لتتصفحها على مهلٍ حين تنتهي من ترتيب أغراضها.

وفي الساعة الثامنة مساءً سمعت صوتًا في الأسفل فذهبت لتنظر من يكون، وكما توقعت.. إنه جدها يستقبل الدكتور "مراد" في غرفة الاستقبال. دخلت سريعًا، وكان قلبها ينبض سريعًا!

- مهلًا فلا أحد سيُقيِّدك ويجبرك على حضور العشاء.

كذلك حدثت نفسها لتهدئ من توترها الذي تسلل إلى قلبها فجأة، ووقفت أمام المرآة تنظر إلى وجهها وتسأل نفسها بصوتٍ مسموع:

- لماذا هذا التوتر؟

ظلت تتجول بين النافذة والمقعد، ثم فتحت التلفاز لتتابع أحد البرامج ولكن لم يستهوِها شيء، ثم أخذت أحد الكتب التي كانت تود أن تتصفحها، إنها عن المواضيع المتعلقة بصناعة السيارات فهي تعلم كم كان والدها شغوفًا بتلك المهنة منذ الصغر.. وظلت تتصفح أوراقه فأحست بشيءٍ بين الأوراق، ما هذا؟!

صورة مطوية نصفين! يبدو غريبًا أن تُطوى صورة وتوضع بين أوراق كتاب! فتحتها فكانت الدهشة قد طغت على كيانها حتى وصلت إلى ملامحها وتسللت ليدها المرتعشة.

فوالدها كان في الصورة بجانبه رجل تعرفه جيّدًا. رغم فارق العمر الذي مر فإن ملامحه واضحة، هو... هو بعينه، السيد "رافح"...

بدا من الصورة أن علاقتهما ليست قويةً رغم أنّ صورةً واحدةً تجمعهما، لا تعرف لماذا انتابها ذلك الشعور غير أن تعبيرات ملامحهما هي التي أوحت إليها بذلك. قلبت بيدها الصورة لعلها تجد شيئًا مكتوبًا في إحدى طياتها، وبالفعل وجدت ما لم تنتبه له من قبل، وجدت مكتوبًا على ظهرها:

"أنا ور افح أمين..

السنة الأخيرة من الجامعة..

حلب، سوريا".

لقد تذكرت.. لقد ذكر لها والدها ذلك الاسم ذات مرة، ولكنها لم تكن تدرك أن يكون هو ذلك الشخص ذاته الذي يقوم بأعمال جدها، وسألت نفسها:

- كيف لم يخطر على بالها أنه هو ذاك الرجل نفسه الذي حدثها أبوها عنه ذات مرة؟

فكان والدها لا يرتاح إليه.. تسلل حديثه إلى ذاكرتها فتذكرت وهو يحكي لها:

- كنت أعرفه منذ الطفولة، وكنت مختلفًا عنه كثيرًا، فهو له ميول أخرى غيري حتى في اللعب.. كان عنيدًا، وكان يستخدم قوته وتحايله في كلّ شيءٍ لكي ينتصر... كان لدي الفضول في مصاحبته فقط لأنه شخص مختلف عني، لا أعرف لماذا كانت تلك الفكرة تقودني لكني تضررت منها كثيرًا فيما بعد، وحين كبرت كنت أرغب في الابتعاد عنه لكن كانت تمنعني حالته. فكنا معًا في الجامعة وكنت أتفوّق عليه، ولكن كان له ظروفه الخاصة، فوالده كان صاحب شركة كبيرة للتصدير لكنه أفلس، بدأت حالته تنحدر، وتصرفاته أصبحت حادة أكثر من المعتاد، فكنت أشفق عليه عندما أضع نفسي مكانه، وكنت مضطرًا للاقتراب منه وتحمله رغم الضغينة التي بيننا،

فيكفي ما حدث له. وكنت لا أحب أن أحكي لجدك عن هذه الضغينة، فكنت أفضل أن أواجه مشكلتي بنفسي.

شعرت وقتها بالدوار، فكيف يكون ذلك الرجل الآن هو أقرب الأشخاص إلى جدها ويحمل كلّ إدارة أعماله؟! فلقد اطمأنت له بعد أن تأكد من هويتها ولم يبدُ عليه أيّ انزعاجٍ من ذلك، وتأكدت من إخلاصه وخوفه على جدها رغم عدم ارتياحها إليه، ولكن الآن أصبح الأمر أكثر من شعورٍ بالقلق من ذلك الرجل فهي تشعر بأن وراءه أمرًا خفيًّا لم تدركه بعد، أو ربما تكون السنين قد تكفّلت بتغيير الضغينة التي بداخله وأصبح مخلصًا لجدها، أيمكن هذا؟

شعرت بالحيرة فماذا تفعل؟ وكيف تتأكد من أمره ومن إخلاصه لجدها وأنه لم يكن يحمل ضغينةً في قلبه نحوه، أرهقها التفكير في ذلك الأمر وأحست أنها تائهة.

قطع تفكيرها طرق على باب غرفتها، نظرت إلى الباب بشرودٍ لكنها سرعان ما أدركت فوضعت الصورة في موضعها، وأغلقت الكتاب الذي يحمل بين أور اقه عقلها الذي تاه في شيءٍ دفن فيه.

استأذنت أم حبيب للدخول فدخلت وعلى وجهها ابتسامة...

- هل ترغبين أن آتي لك بالعشاء إلى هنا؟

- لا يا أم حبيب لا أرغب في العشاء.

ثم التفتت إليها نادية باهتمامٍ قائلة:

- أود أن أسألك عن السيد "رافح" ماذا تعرفين عنه؟

قال أم حبيب:

- إنه مدير أعمال جدك السيد عارف.

- نعم أعرف.. أقصد ماذا تعرفين عن شخصيته وطبعه؟

نظرت إليها أم حبيب قليلًا وترددت متلعثمةً في الكلام ثم قالت:

- إن السيد "عارف" يثق به كثيرًا فهو يتولى كلّ أعماله، رغم...

ثم صمتت قليلًا فسألتها نادية:

- رغم ماذا يا أم حبيب؟

- رغم أن الكثير لا يرتاح إليه حتى في العمل، فزوجي وابني كثيرًا ما يضايقهما سوء معاملته للعمال وأشياء كثيرة عن العمل لم أفهمها، لكن جدك لم يشتكِ منه قط.

استأذنت أم حبيب وخرجت مسرعةً كأنها تهرب من ذلك الحوار الذي بدا لها استجوابًا أكثر منه حوارًا.

شردت نادية في أمر السيد "رافح"، وخشيت على جدها من احتمال أن يواجه خطرًا من ذلك الرجل، ولم تنم تلك الليلة وشعرت أن كلّ شيءٍ غائم أمامها.. فهي أتت من أجل الاطمئنان والدفء، من أجل سعادةٍ لم تذقها إلا أيامًا معدودةً وفي تلك الأيام يأتي شيء ليؤرقها، شعرت بحقيقة أن سعادتها مهددة بالزوال وليس سعادتها فقط بل سعادة جدها الذي كان قد أقلم حياته على وحدةٍ تملؤها الذكريات.. وإن كانت قاسيةً إلا أنها هادئة.. أما الآن فحياته مهددة بانتكاسةٍ تشعر أنها هي السبب في حدوثها، فهي من أتت لتحمل بيدها سعادةً أخرجته من وحدته إلى الألفة والمودة ولم تكن تعلم أنها حملت معها حقيقةً أخرى، حقيقة أن وجودها سيكشف وجهًا آخر قد يكون أشد قسوةً من قسوة الوحدة التي تأقلم عليها.

فيا له من أمرٍ مؤلمٍ ملأ قلبها بالحزن! باتت تفكر في أمرها كثيرًا حتى اقتربت الساعة من الرابعة صباحًا، غفت عيناها دون قصدٍ منها فعقلها ظل طيلة الليل يأبى أن يطلق سراحها حتى استسلم أخيرًا، وما مرت إلا ساعات قليلة حتى فتحتها على نور الصباح ترتسم عليه صورة ذلك الأمر الذي باتت عليه.

أملت أن تقابل جدها قبل أن يذهب إلى عمله، جهزت نفسها وارتدت فستانًا ملائمًا، ثم نزلت الدرج على عجل، وكان جدها في غرفة المكتب يرتشف القهوة ويرتب بعض الأوراق التي سيأخذها معه.

طرقت الباب وهي تستأذن الدخول فقابلها جدها بابتسامةٍ عريضة. اتجهت إليه مُقبّلةً جبينه ثم قالت:

- صباح الخير.

- صباح الخير، استيقظتِ اليوم مبكرًا أيضًا.

نظرت إليه بابتسامةٍ ترغب أن تخفي بها آلامها، قائلة:

- نعم أريد أن أودعك قبل ذهابك يا جدي.

- يسعدني ذلك...

ثم أكمل حديثه على عجل:

- أرغب في الذهاب سريعًا فالسيد "رافح" ينتظرني في المكتب لأقوم ببعض الجولات التي حدثتك عنها أمس.

شعرت أن قلبها قد انقبض عندما سمعت اسمه.. ودّت لو تخبر جدها بمخاوفها لكن الأمر بالنسبة لها كان مستحيلًا، فيجب عليها أن تخفي كلّ شيءٍ بداخلها حتى لا تهدم تلك السعادة التي تراها مرتسمةً على وجهه، قالت:

- سأُحضِّر لك الإفطار قبل أن تخرج.

- لا، سأتناوله في المكتب حتى لا أتأخر.

ودعت جدها ثم قضت وقتها في الحديقة، يبدو عليها أنها تتأمل كعادتها لكن عقلها شارد، فاقدة للشهية لم تذق طعامًا قط.. بل مضت تفكر كثيرًا في تلك الحياة التي تبدلت وفي ذلك الأمر الذي حلّ بها، وقد مر الوقت بطيئًا، قضته مع عقلها المزدحم.

الساعة الرابعة بعد العصر... شعرت أن جدها تأخر قليلًا عن موعده ولكنها حدثت نفسها: "لعله انشغل بأمورٍ أخّرته عن موعد قدومه".

ولم يمضِ إلا وقت قليل حتى وقفت سيارة أمام البيت نزل منها رجلان برفقة السيد عارف وهو يستند عليهما وعلى وجهه أثر الإرهاق الشديد، انقبض قلبها وبدا عليها القلق و اتجهت سريعًا إليه قائلة:

- ما بك يا جدي؟

ثم نظرت إلى الرجلين موجهة إليهما سؤالها: ماذا أصابه؟

قال أحد الرجلين:

- كان يباشر العمل داخل المصنع وفجأةً شعر بالدوار، من فضلك نريد أن نوصله إلى غرفته، فدلينا على الطريق.

صعدوا إلى غرفة السيد عارف واستراح على فراشه، وبادرت نادية مسرعةً لطلب الطبيب لكنها لا تعرف أحدًا هنا، أقبلت عليها أم حبيب مسرعة، هي أيضًا كان يمتلكها القلق، مشيرةً إلى دفتر التليفون، قائلة:

- ستجدين هنا رقم الدكتور مراد اتصلي به.

ترددت قليلًا، لكنها لم تهتم في ذلك الوقت بأيّ شيءٍ يجول بخاطرها وطلبته ليأتي على عجل. كان قلبها ينتفض وزاد انتفاضه أكثر بتلك المكالمة التي لم تكن في الحسبان.

أنهت المكالمة، لم تعِ ماذا قالت غير كلماتٍ تفي بالمعنى.

جاء الدكتور مراد، ودخل مباشرةً إلى غرفة السيد عارف ليفحصه، وكانت نادية ومعها أم حبيب تنتظران بالخارج بجوار الباب ويبدو عليهما القلق، بينما تردد أم حبيب دعوات بصوت خافت... حتى خرج الدكتور مراد؛ فأسرعت إليه نادية لتسأله عن حالة جدها وهي ما زالت قلقة:

- كيف حالته الآن يا دكتور وماذا به؟

نظر إليها وصمت لبرهةٍ زادت من قلقها، ثم قال:

- إن السيد عارف أجهد نفسه كثيرًا في العمل.. فهو لم يعتد منذ سنوات ذلك المجهود ومن الطبيعي عندما يعود إلى نشاطٍ زائدٍ عن عادته في مثل هذه السن أن يتعرض للمرض.

بدا على وجه نادية الحزن والقلق الزائد وهي تقول:

- لقد نصحته كثيرًا ألا يرهق نفسه في العمل.

- لا تقلقي لقد أعطيته دواءً ليستريح بعض الوقت، لكن المهم ألا يجهد نفسه ويلزم الفراش أسبوعًا على الأقل، ولا بد أن يتناول الطعام الخفيف مع الانتظام في تناول الأدوية، فهو يحتاج لرعاية جيدة في تلك الفترة.

- شكرًا يا دكتور.

- عفوًا.

خطا بعض الخطوات ليغادر المنزل، لكنه التفت لينظر إلى نادية مرةً أخرى قائلًا:

- من الممكن أن تطلبي من أم حبيب القيام بذلك، هي ستقوم به جيّدًا.

نظرت إليه نظرةً غاضبةً فلم تكن تتوقع كلماته، وكاد قلبها يمتلئ غيظًا من تلك الكلمات، وقالت:

- سأقوم بكلّ شيءٍ بنفسي، فأنا قادرة على فعل ذلك.. شكرًا لك.

لكنه كان هادئًا لا يبدو عليه أيّ أثر من غضبها الذي بدا عليها، فقال:

- حسنًا، سأعود مرةً أخرى في الغد لأتابع حالته.

ظلت تفكر في كلماته التي كثيرًا ما كانت تشعر أنه يقصدها. وأثناء نزوله الدرج سألها:

- لقد قال لي جدك أنك ستمكثين معه دائمًا، أهذا صحيح؟

- نعم سأمكث معه دائمًا، فأنا لست من الذين تأسرهم المباني الشامخة ويأتون فقط ليتأملوا الجبال حين تهلك قلوبهم.

لا تعرف لماذا قالت تلك الكلمات وكان من الممكن أن تجيب عن تساؤله فقط، ولكن تلك الجملة التي قالها من قبل قد تركت جرحًا و أثارت بداخلها الغضب، وإن كانت ليست متأكدة من أنه يقصدها هي أم لا، وما قالته هو ترويحٌ عن ذلك الغضب و انتصار على كلماته، تريد أن تبدي له ثقتها بنفسها التي لا تزلزلها تلك الكلمات، وقد يكون إثباتًا لها هي ذاتها بنفي ما يقوله من أحاديث يخفي خلفها مقصودًا لم تعِ ما هو حتى الآن.

لكنه كعادته لا يبدو عليه أثر كلماتها، فقط قابل كلماتها بكلمات زهيدة جعلتها تبدو أكثر حيرة:

- لم أكن أقصد ما فهمتِه.

ذهب وكلماته تدوي في أذنيها وسؤال يتردد بداخلها: "ولكن ماذا كان يقصد؟"

يا له من لغزٍ يدور حولها! فعقلها أصبح لا يتحمل أكثر من ذلك، لكن سرعان ما ذهب تفكيرها إلى مرض جدها الذي أصبح بحاجةٍ إليها أكثر من ذي قبل.. قررت أن تترك ما يشغل عقلها من أمورٍ كثيرةٍ وتنشغل برعاية جدها حتى تتحسن صحته...

مرت ثلاثة أيامٍ وما زالت صحة السيد عارف تحتاج إلى راحة، وكانت نادية ترافقه في كلّ وقتٍ وتقوم له بكلّ شيءٍ بنفسها، لا يحلو لها نومٌ ولا راحة، تنتظر الوقت الذي يعود فيه جدها كما كان و اقفًا على قدميه يتحدث ويضحك معها، بعد أن أصبح كلّ ركنٍ في أرجاء البيت صامتًا وكأن كلّ شيءٍ أشبعه الحزن على صاحبه الذي لزم فراشه، حتى حديقته رغم أن نادية تسقيها كلّ يومٍ فإن الورود أصبحت هزيلةً كأنها حزنت على فقد حديثها معه.

وخلال تلك الأيام يأتي الدكتور مراد كلّ يومٍ ليتابع صحة السيد عارف ويجلس معه بعض الوقت.

ولكن الأمر الذي ما لبث أن لفت انتباهها هو أن السيد "رافح" لم يأتِ لزيارة جدها في تلك الأيام باستثناء اتصالٍ هاتفيّ لمدّةٍ لا تتعدى بضع دقائق ليطمئن على حالته، وكأنه واجب لا مفر من القيام به. لكنه بعد تلك الأيام جاء لزيارته، فاستقبلته نادية:

- أهلًا سيد "رافح"، منذ أن مرض جدي لم تأتِ لزيارته.

- أتمنى أن تعذريني فهناك أعمالٌ كثيرة وأنا أحمل مسؤولية كلّ شيءٍ على عاتقي، أظن أن السيد "عارف" يلتمس لي العذر.

- ولكن أليس من الأولى صاحب هذه الأعمال؟

نظر إليها مبتسمًا ابتسامةً عريضةً قائلًا:

- معكِ حق فأنا مقصر فعلًا، أتسمحين لي أن أقابل السيد "عارف" قليلًا لأطمئن عليه؟

- تفضل، ولكن أرجو ألا تحدثه عن أية أعمال فما زالت صحته تحتاج إلى راحة.

- لا تقلقي.

لم تكن تصرفاته معها توحي بوصف والدها له بالعناد، فكان مسالمًا إلى حد كبير.

صعد إلى غرفة السيد عارف، وما زال يقلقها أمر ذلك الرجل فحتى الآن لا تعرف ماذا تفعل، لكنها تود أن يكون الأمر مؤجلًا حتى تطمئن على جدها.

مضى معه وقتًا ثم انطلق سريعًا، شعرت به وهي تعد العشاء لجدها مع أم حبيب، وعندما انتهت حملت العشاء متّجهةً إلى جدها، دخلت بابتسامةٍ على وجهها قائلة:

- العشاء جاهز.

كان الإرهاق يظهر عليه، فجلست بجواره تناوله الطعام، وهي تقول:

- أرهقت نفسك بالحديث مع السيد "رافح" عن العمل.. أليس صحيحًا؟

- لا، لم نتحدث كثيرًا لكنه فاتحني في بعض الأعمال التي تحتاج لسفرٍ إلى الخارج وبعض المفاوضات التي سيجريها بشكلٍ مُبسّط.

- أرجوك يا جدي أن تؤجل التفكير في أيّ عمل حتى تتعافى.

- لا تقلقي، سأكون بخير إن شاء الله.

ثم سألها:

- هل اتصل الدكتور مراد؟

- نعم.. قال أنه سيأتي في التاسعة أي بعد نصف ساعة تقريبًا.

تناول العشاء، وظلت نادية معه تبادله الحديث بكلماتٍ قليلةٍ حتى لا يشعر بالإرهاق...

****

جاء الدكتور مراد لكنه قبل أن يقابل السيد "عارف" ليتابع حالته كعادته كلّ يومٍ طلب من نادية الحديث معها بعد متابعة السيد عارف لأمرٍ ضروريّ.

شعرت بالقلق من جراء ذلك الطلب وهي تسأل نفسها: "ما هذا الأمر الضروري الذي يرغب الحديث فيه معي؟ هل الأمر يخص صحة جدي؟ أم ماذا؟"

كان القلق يزيد بداخلها كلما مر الوقت وكاد التوتر أن يملأ قلبها حتى خرج الدكتور مراد من غرفة جدها ثم نزل الدرج و اتجهت وراءه.

وقف صامتًا للحظات، لكنها أصبحت لا تطيق ذلك الانتظار وذلك الصمت الذي تمزق لحظاته قلبها فقالت بتوتر:

- ما الأمر الضروري الذي تود أن تحدثني فيه؟ هل ظهر شيء جديد بخصوص صحة جدي؟

- لا.. لم يكن الأمر متعلقًا بصحة السيد عارف، اطمئني سيكون بخير.

سألها:

- هل جاء السيد "رافح" لزيارة السيد عارف منذ أن مرض؟

بدا على نادية علامات الاستغراب من سؤاله لكنها أجابته:

- نعم جاء اليوم لزيارته.. ولكن لماذا تسأل؟

لم يجب عن سؤالها لكنه لاحقها بسؤال آخر:

- وما رأيك في السيد "رافح"؟

شعرت نادية من وراء سؤاله بأنه يريد أن يتوصل إلى شيءٍ أو ربما يريدها هي أن تتوصل إلى شيء، لكنها خشيت على جدها، خشيت أن تُظهر مخاوفها وتحكي ما تعرفه عن ذلك الرجل فيطلب منها الدكتور مراد أن تحكي لجدها عن مخاوفها؛ فعزمت أن تخفي مخاوفها بداخلها إلى أن تهتدي إلى ما يمكن أن تفعله دون أن تبدد تلك السعادة التي ملأت حياته.

رتبت كلماتها ثم قالت:

- إنه رجل يتحمل المسؤولية، فهو يتحمل أعباء عمل جدي كاملة دون أيّ كلل.

نظر إليها وكأنه شعر بتوترها وأدرك ما يقلقها، ثم سألها:

- ألم تسألي نفسك لماذا يفعل ذلك؟

لكنها سرعان ما اتجهت إلى مكانٍ آخر لعلها تخفي قلقها الذي يجول بداخلها، وتخفي إجابتها الحقيقية تجاه مخاوفها من ذلك الرجل.

لم يلح عليها في الإجابة بل ترك لها حرية أن تسمع الإجابة بداخلها هي وحدها، ثم أضاف قائلًا:

- أتمنى أن تفكري في سؤالي وتدركي إجابته فأنتِ تحتاجين إلى ذلك.

- هل تعلم شيئًا تخفيه عني؟

هكذا بادرت بحديثها بعد أن عجز ظاهرها عن الإنكار، فهي تريد من يعاونها على اكتشاف حقيقة هذا الرجل.

التفت إليها بعد أن اتجه إلى الباب لينصرف مجيبًا عن سؤالها.. "لدي شعور كما لديكِ، لكن ليس لدي أيّ إثبات".

شعرت بالراحة بعد أن صرحت له بقلقها... رغم ما يجول بخاطرها من تساؤلات نحو أحاديثه التي تغضبها وما يقصد من كلماته.. فإن ما قاله بشأن السيد "رافح" قد أثبت لها شعورها بأن وراءه أمرًا قد يكون فيه ضرر على جدها، وذلك كفيل أن يزيد من خوفها على جدها، إلا أنها وجدت من يشاركها شعورها في ذلك الأمر ولو بكلمةٍ تثبت صدق شكوكها.

ظلت طيلة الليل تفكر فيما قاله.. لماذا يفعل السيد "رافح" كلّ ذلك؟ فلو أنها لم تعرف علاقته بوالدها التي تملأها الضغينة لقالت أنه يُقدِّر جدها ويحب أن يحمل عنه عبء أعماله.. ولكن يبدو أن الأمر ليس بتلك الصورة التي تبدو في الظاهر.

ورغم أنها تعرف جزءًا من الحقيقة فإنها ما زالت لا تدري ماذا تفعل. لم يكن للنوم أن يزورها بعد تلك المفاجأة، فما بين مرض جدها الذي يؤرقها وما بين ذلك الرجل الذي لا تدري ماذا تقول بشأنه.

*****

جاء السيد "رافح" بعد الغداء فانفرد بالسيد عارف وأمضى معه وقتًا طويلًا، فشعرت نادية بالقلق ولم تغب عيناها عن باب غرفة جدها، وحدثت نفسها:

- يبدو أن هناك أمرًا هامًا وراء ذلك الغياب، رغم أنني سبق أن أكدت عليه ألا يجهده بالحديث عن العمل.

قطع تفكيرها خروجه من غرفة جدها مقبلًا عليها بابتسامةٍ عريضةٍ وألقى تحيته إليها وغادر سريعًا. وما إن ذهب حتى أقبلت على جدها مسرعة، وكأنها في كلّ مرةٍ بعد ذلك اللقاء تود أن تطمئن عليه إثر حديثه مع ذلك الرجل.

جلست أمامه فبدأ حديثه:

- لقد أخبرني السيد "رافح" عن بعض الأعمال لكني أصبحت غير قادر على تحمل سماع كلّ هذه المفاوضات والأشغال والاطلاع عليها؛ فأصبحت أشعر بالإرهاق حتى من مجرد التمعن في الورق؛ فاقترحت على السيد "رافح" أن أُجري له توكيلًا عامًا أفوضه فيه بالقيام بكل أعمالي، ربما كنت لا أرغب في فعل ذلك من قبل لشعوري بالوحدة، فكلّ شيءٍ تركني، ابني وزوجتي وبيتي وأصبحت لا أستطيع أن أكون كما كنت من قبل، وكان قدوم السيد "رافح" ليأخذ موافقتي في الأعمال التي يقوم بها يشعرني بأني ما زلت على قيد الحياة.. ما زلت مرغوبًا مسموع الرأي لدي أهمية حتى إن كانت توقيعًا على ورق، أما الآن فحفيدتي بجانبي.

كادت الدموع أن تنهمر من عينيها، شعرت بالحزن يمزق قلبها بعد سماعها ذلك الحديث وكذلك بعدما علمت ما عزم جدها على فعله، لم تكن تعرف ماذا تقول وماذا تفعل، أتبوح بما في داخلها؟ أم تصمت وتخفيه؟

كانت في تلك الأيام التي مرت عليها مع جدها تشعر بالفرحة عندما ترى سعادة جدها بقدومها، أما الآن فهي تكاد تلوم نفسها على ما حل به وهي تخفيه عنه.

تركت نادية غرفة جدها وهي تشعر بالدوار من ثقل ما يجول برأسها ومن قلة حيلتها تجاه ما تخفيه الأيام، ثم اتجهت خارج البيت تسير وهي تكاد لا ترى أمامها، ودون أن تدري إلى أين تأخذها خطواتها، ويرتسم أمامها لحظة خروجها من مكتب مستر سميث بعد مواجهتها بمستر جاك، هكذا هو نفس الشعور الذي تملكها يتكرر مرةً ثانية، فما أشبه اليوم بالبارحة!

وظلت تسير حتى وجدت نفسها في ذلك المكان ذي الجبال الشامخة والخضرة التي تحيطه من كلّ مكان، كانت تتأملها من قبل وقلبها ممتلئ بالسعادة، أما الآن فإنها تود لو أصبحت جبلًا من تلك الجبال التي لا تخشى أن تنكسر لكنها تعترف لذاتها أنها مهزومة من داخلها. وظلت شاردةً دون أن تشعر بالوقت، ولم يفدها ما مضى من الوقت فكلّ شيءٍ متوقف بداخلها. وسمعت صوتًا هادئًا يقطع شرودها:

- هل أنتِ بخير؟

إنه ذلك الصوت وذلك السؤال الذي سمعته بعدما ربطت حزام الأمان في الطائرة، بل حزام الأمل كما رددت في نفسها في ذلك الوقت. التفتت فإذا به الدكتور مراد، جاء ليعيد تلك اللحظة بذلك السؤال، لكن جوابها كان مختلفًا:

- لم أكن بخير قط، ولم أستطع أن أكون بخير، فكلما اقتربت من تلك السعادة بعدت هي دون أن تكتمل، وجدت ما كنت أبحث عنه من دفءٍ بجانب جدي وشعرت بأن السعادة تحيطني من كلّ جانب، وأنها لن تفارقني أبدًا، بل ووجدت سعادته هو أيضًا، كان يسعدني ذلك الشعور بفرحته لقدومي وكان يسرني حين أرى السعادة ملأت حياته وأصبح مقبلًا على

الحياة، ولم يكن يعرف أن خلف تلك السعادة حزنًا سيذوقه أيضًا بسببي.. فبسببي سيخسر كلّ شيءٍ وقد تتبدل سعادته بحزنٍ يملأ قلبه، ولولا وجودي لظلت حياته هادئةً كما كانت.

قال لها دكتور مراد:

- اهدئي سيكون كلّ شيءٍ على ما يرام.

- لن أنتظر بل سأسافر إلى باريس وأعمل في أحد مكاتب المحاماة الكبرى هناك.. فأنا أريد أن أبتعد قبل أن أرى جدي يتأذى بسببي.

نظر إليها وقد ملأه غضب ثم قال:

- بل تريدين أن تهربي كما هربتِ من قبل.

نظرت إليه وقد علت وجهها الدهشة... ماذا يقول؟ وماذا يقصد؟

لكنه قاطع تلك التساؤلات التي تجول بداخلها:

- اعتدت كلما عدت من سفري أن أزور السيد "عارف" في المدينة التي كان يسكن بها في اللاذقية لأطمئن عليه، فكم أقدره وأحرص دائمًا أن ألتقي به.. وذات يوم ذهبت إليه بعد أن عدت من لندن لكني لم أجده ووجدت البيت مغلقًا وكأن أحدًا لم يكن يسكنه، فأسرعت لأتفقد أحواله من جيرانه فقابلتني السيدة صفية واستضافني زوجها، وقد كان يربطني بهما أيضًا علاقة طيبة من خلال جدك، فعلمت منهما كلّ شيءٍ وأنه عاد إلى بيته في حلب ومعه حفيدته، وقصت عليّ السيدة صفية قصتك مع مستر جاك حتى تركتِ مكتب مستر سميث.

أدار ظهره بينما كلماته لم تنتهِ بعد:

- هربتِ من لندن بعدما فشلتِ في مواجهة مستر جاك والآن تريدين أن تهربي من مشاكل جدك.

ثم نظر إليها وهو يردد كلماته بغضب:

- أنتِ الآن تكررين نفس الأمر وتريدين أن تهربي وستظلين حياتك كلها هاربة.

تسمّرت مكانها، ولم تعِ ماذا تقول، فقد أذهلها حديثه الذي كان كزلزال حدث بداخلها.

علمت وقتها ما يعنيه حديثه الذي قاله لها منذ أيامٍ في ذلك المكان عندما أتت لتتأمله (أن هناك من البشر من لا يلجؤون للتأمل بين تلك الطبيعة إلا عندما تهلك قلوبهم).. علمت مقصده الذي كان يحيرها، وزال الستار عن كلماته الغامضة التي كان يلقيها عليها من حينٍ لآخر فيشعلها غضبًا.

ولكن كلماته الآن كانت أقوى من أيّ حديثٍ مضى، فكانت كلماته تواجهها بما لم تعرفه عن نفسها. قالت:

- أنا لم أقو على مواجهة جدي بمخاوفي، فلا أرضى أن يصيبه ضرر.

نظر إليها متسائلًا في تعجب:

- ولكن تقوين على أن تتركيه وحيدًا مع السيد "رافح" دون أن يعلم ماذا يمكن أن يحل به غدًا.. صحيح؟

صمتت غير قادرة على قول أيّ شيء.. انصرفت في صمتٍ حتى وصلت إلى البيت متّجهةً إلى غرفتها ولم تعِ ما تقوله لها أم حبيب، بأن تُحضِّر لها العشاء.

اختارت أن تنفرد بنفسها لتبحث في ذاتها عن تلك الحقائق التي صدمها بها الدكتور مراد، وظلت في غرفتها يومين لم تذق راحةً ولا طعامًا، دون أن تترك غرفتها إلا عندما ترغب أن تطمئن على جدها وتعطي له دواءه ثم تعود مرةً أخرى لتنفرد بنفسها. ولم ترغب في الحديث طيلة يومين..

حتى الدكتور مراد كانت تتجنب مقابلته عندما كان يأتي ليتابع صحة جدها رغم أن حديثه كان يتردد بداخلها في كلّ وقت، لكنها تريد أن تفكر بنفسها دون أيّ تأثير خارجي، تريد أن تواجه نفسها بالحقيقة وأن تنصت لقلبها.

وفي الصباح استقبلت نوره بقرارٍ جديد، وقررت أن تترك عزلتها وهيأت نفسها للقاء جدها في أمرٍ هام. كان يبدو عليها الإرهاق وشعر بذلك جدها عندما أقبلت عليه لكنه لم يصل معها إلى شيءٍ في ذلك الأمر، ولم يستطع أن يعرف ما يقلقها.

جلست أمامه باهتمامٍ وقالت:

- أريد أن أحدثك في أمرٍ هام.

انتبه إليها قائلًا: ماذا؟

- أريد أن أتولى إدارة أعمالك بدلًا منك وثق أني قادرة على ذلك.

- ولكن، هذا أمر شاق بالنسبة لكِ وستحتاجين وقتًا كبيرًا لكي تفهمي تفاصيل العمل.

- لكن أعدك أني سأجتاز الوقت في فهم تفاصيل العمل، فلم أعتد على الجلوس دون عملٍ وأحببت أن أستأذنك في أن أدير بعض الأعمال.. ألا تثق بي؟

نظر إليها بابتسامة:

- طبعًا أثق بكِ ولكني فقط أخشى عليك الإرهاق.

ابتسمت له قائلة:

- لا تخف يا جدي فقط ضعني موضع اختبار.

صمت قليلًا ثم قال:

- كما تحبين، سأبلغ السيد "رافح" ليصطحبك إلى العمل ويعرفك بكلّ شيءٍ مع الوقت.

- أود أن أطلب منك شيئًا آخر يا جدي.

- اطلبي ما تريدين.

- أود أن تؤجل فكرة عمل توكيل للسيد "رافح".. فأنا أريد أن أعمل تحت اسمك.

نظر إليها وهو يبدو متعجبًا من طلبها لكنه وافق على الفور.

شعرت أن جدها قد أحس بشيء يجول بداخلها لكنها حرصت على أن تنفي شكوكه حرصًا على صحته.

وهكذا قررت دون أن تدري، وتساءلت هل تستطيع خوض تلك المواجهة؟ لا تدري لكنها قررت وأدركت أن لا مفر من خوض تلك المواجهات في بعض الأحيان لكي تكتمل الحياة، فالدفء هو أمنية قلبها فقط.. الاطمئنان الذي ترغب أن تسكن فيه.. الابتسامة دون خوف أن تزول.. السعادة التي بحثت عنها دائمًا، هذا هو كلّ حلمها في تلك الحياة.. ولكنها أدركت أن الحياة هكذا أينما ذهبت، ومتى كانت لا تخلو من الأشياء التي تزور أيامها فتعكر صفوها وتشتته فتنتظر منها أن تسلك معها سبيل المواجهة ولعله يكون هو سبيل الدفء.

كان كلّ هدفها أن تصل إلى الحقيقة كاملة وهذا يجعلها بحاجة ألا تعتمد على السيد "رافح" في كلّ شيءٍ ولكن كيف؟ هذا هو ما يدور بعقلها

ظلت يومها تستعد لذلك القرار الجديد فتستجمع قوتها كي تخوض تلك المعركة وتمضي فيها.

*****

استيقظت في الساعة السادسة صباحًا وأطلت من نافذتها لتستقبل مع السماء شمس يومٍ جديد، فكم تحتاج إلى تلك اللحظات التي ترى فيها النور ينبثق من الظلمة ولعله يضيء بداخلها فتهتدي إلى الحقيقة، أخذت حمامًا دافئًا وارتدت ثوبًا رمادي اللون ورتّبت حقيبتها التي بها بعض أوراق خاصة بالعمل أعطاها جدها لها في ليلة الأمس، ودونت في الأخرى بعض الملاحظات التي حرص جدها على علمها بها.

امتلأت نفسها بالثقة.. وشعرت أنها قادرة مهما بدا لها الأمر صعبًا. خرجت من غرفتها متّجهةً نحو الدرج بهدوءٍ حتى لا توقظ جدها من نومه لكنها فوجئت بنور غرفته موقدًا؛ فطرقت الباب مستأذنةً ودخلت فإذا به ينتظرها جالسًا على فراشه مبتسمًا؛ فأقبلت عليه لتودعه فقبّل رأسها قائلًا:

- أحببت أن أستيقظ مبكرًا و أنتظرك لأودعك مثلما كنتِ تفعلين معي.

ابتسمت وهي تقول:

- يسرني ذلك.. لكني سأكون مسرورةً أكثر كلما ارتحت جيّدًا.

- لا تقلقي سأكون بخير.

انطلقت بعدما ودّعت جدها متّجهةً إلى المكتب وهي تشعر أنه قد بدا عليه الارتياح لتولي حفيدته بعض أعماله وتعرضها لتفاصيله.

كان السيد "رافح" هو أول من استقبلها بعدما أرسل إليها سيارةً تصطحبها إلى الشركة مثلما طلب السيد عارف، جلسا في مكتبه لكنها لم تتحدث قط حتى بدأ هو حديثه:

- أهنئك على فكرتك بأن تتولي بعض أعمال جدك.. وأعدك أني سأساعدك لتتعرفي على كلّ شيءٍ ولكن ذلك سيحتاج وقتًا.

و ابتسم ابتسامةً عريضةً توحي برضائه عما قررت، لكن الأمر بالنسبة لها كان أهم مما يبديه.. فهي تبحث عن الحقيقة.

نظرت إليه قائلة:

- أعرف جيّدًا أن الأمر سيحتاج إلى وقتٍ لكني بالفعل سأحتاج لبعض التوجيه.

حرك رأسه بالموافقة قائلًا:

- و أنا عند وعدي لك.

ما كانت تقصده ليس هو ما فهمه.. فهي كانت تحدث نفسها بصوتٍ مسموعٍ ولو كان الأمر بيدها لما طلبت منه أيّ مساعدة.

وشردت في حديث الدكتور مراد الذي كان يلقيه دائمًا عليها.. ذلك الحديث الذي ليس معناه فيما تحمله الكلمات والحروف بل في موطنه داخل النفس.

(٨)

البحث عن الحقيقة

استقبلت العمل بشكل دؤوب، جلست لأول مرةٍ على مقعد جدها وشعرت وقتها بإحساسٍ مختلف، فهي اعتادت أن تجلس في موضع المرؤوس الذي يأخذ تعليماته من رئيسه، ورغم أن أمرها في عمل جدها ليس ببعيدٍ عن ذلك فهي ما زالت لا تفقه أيّ شيءٍ عن ذلك العمل، فإن جلوسها في ذلك المكان أشعرها بالمسؤولية التي تخوضها خفية.

تابعت كلّ شيءٍ بصمت واطلعت على كثير من الأوراق... عقود كثيرة.. وميزانيات.. شعرت وقتها بأنها تائهة ومن الممكن أن تكون تلك هي رغبة السيد "رافح" لكي تشعر بالملل وصعوبة الأمر فتترك العمل قبل أن تبدأه، لكنها أبت أن يكون ذلك عقبةً في طريقها الذي اختارته.

وتعرفت على كلّ جزءٍ في الشركة، لقد أدركت أشياء لا بأس بها عن العمل في ذلك اليوم وكانت آخر جولاتها في مصنع الأرز الذي وجدت فيه زوج أم حبيب وابنها؛ فسُرّت بالتعرف عليهما، كما أبديا فرحتهما بقدومها للمشاركة في العمل.

وعادت إلى البيت بعد يوم طويل شاق من العمل، متّجهةً إلى غرفة جدها وهي تتوقع أنه ينتظرها ليتفقد أخبارها في أول يومٍ لها في العمل، وهي أيضًا كانت متشوقة لكي تحكي له عن كلّ ما تعلمته وعن جولتها طوال اليوم، وكان توقعها صحيحًا إذ رأت جدها ينتظرها بابتسامته التي طالما ارتسمت على وجهه في كلّ مرةٍ حين تقبل عليه، لكنه ليس بمفرده فقد كان معه الدكتور مراد، ورغم أنها كانت تتجنب الحديث معه، فإنها كانت تود أن تحكي لجدها كلّ تفاصيل يومها في العمل، وأكثر ما كان يسعدها أن ما تقصه كان

في حضور الدكتور مراد الذي كان يراها هاربةً لا تقوى على مواجهة مشاكلها ولا مشاكل جدها، ورغم أن حديثه جعلها في مواجهةٍ مع نفسها هي ذاتها فإنها كانت ترفض أن تكون كذلك، كان كلامها تملأه الثقة وعيناها يغمرهما التحدي.

قالت في حماس:

- أدهشتني تلك الصفقات المتعاقدة عليها الشركة... صفقات كبيرة وناجحة، وكذلك مصنع الأرز، ترتيب وتنسيق العمل فيه هو سر نجاحه بالتأكيد.

أبدى جدها مو افقته قائلًا:

- هذا أول ما أسست، وضعت فيه كلّ طاقتي وعملي حتى رغبت في التوسع في العمل لكن كان هو أساس اهتمامي، لذلك فرغت له يومًا في زيارتي الأولى إليه بعد غيابي الطويل عن العمل لكي أتابع ما تطور فيه.

- صحيح... وجدت في مصنع الأرز زوج أم حبيب وابنها وعاوناني في معرفة الكثيرعن المصنع.

ابتسم السيد عارف قائلًا:

- كنت أثق في مهارة حفيدتي.

بينما لم يُبدِ الدكتور مراد رأيه فكان يستمع في صمت، فشعرت أن وراء صمته حديثًا لم يقله بعد. وبعد وقتٍ من تلك الجلسة الممتلئة بأحاديثها عن يومها الأول في العمل جاء السيد "رافح" واستأذن في الدخول فألقى التحية على السيد عارف، بينما كانت التحية بينه وبين دكتور مراد بها كثير من التحفظ، وكيف لا وهما على النقيض في كلّ شيء!

تحدث السيد عارف مبتسمًا:

- إن حفيدتك تلميذة مجتهدة ويبدو أنها ستفوقني.

ابتسم السيد عارف:

- نعم إنها متشوقة للعمل أكثر مما كنت أتوقع.

ما زال الدكتور مراد يستمع إلى الحديث في صمت، حتى استأذن من السيد عارف للذهاب ولكن قبل ذهابه طلب الحديث إلى نادية، ويبدو أن جدها كان يعلم الأمر الذي يريد الحديث فيه معها، وجه السيد عارف له الحديث:

- لا أوصيك يا دكتور مراد أتمنى أن أطمئن.

- أرجو أن تطمئن. ولكن عليك أن ترتاح فما زلت تحتاج إلى الراحة.

نظرت إليهما وشغلها تفكيرها بما يحدث.. فما الذي يود جدها الاطمئنان عليه؟

كانت تخشى كلماته أو ربما كانت تخشى الحديث الذي يراودها طيلة الليل مع نفسها إثر تلك الكلمات، لكن اليوم شعرت أنها بادرت بأول خطوةٍ تجعلها تثبت أنها قوية. خرجت من الغرفة بعدما خرج الدكتور مراد.. فاستوقفها قائلًا:

- طلب السيد عارف مني المجيء لأنه يشعر أن هناك شيئًا يؤرقك وتبدين مرهقة ويريد الاطمئنان عليك.

نظرت إليه قائلةً في هدوء:

- أنا بخير لم يكن بي شيء.

فأخذ يكتب في ورقة بيده وهو يلقي إليها حديثه:

- بل أنت عنيدة.

- بل إني أحببت ألا أكون هاربة.

لم يرد عليها وكأنه لم يسمعها ثم استأنف حديثه:

- كتبت لك دواءً يساعدك على التحسن، فيبدو أنك لم تستريحي جيّدًا، كما أن أم حبيب أبلغت جدك أنك لم تتناولي الطعام منذ يومين... أنصحك ألا تطيلي في الإضراب عن الطعام فالعناد يحتاج إلى قوة.

تركها وقلبها يمتلئ غضبًا من كلماته فما زال وراء كلماته مقصدًا وإن بدا وضوحها.

لا تعلم لماذا لم تشكره رغم أنها تعلم أنه على حق، لكن ما يشغل تفكيرها هو أنها تستطيع أن تصل إلى ما يخبئه السيد "رافح" بداخله، فهي أدركت اليوم أن الجميع ينظر إلى ذلك الرجل نفس النظرة التي تملؤها الشكوك في إخلاصه لجدها.

تناولت غداءها وهي في حالةٍ من الإرهاق، وعقلها يستعيد ما قامت به اليوم، فكل ما اطلعت عليه وكل ما رأته يبدو طبيعيًّا فلا يوجد شيء يلفت نظرها منذ أن ذهبت إلى الشركة حتى غادرتها.

وشعرت أنه يجب عليها أن تكون بعيدةً عن السيد "رافح" حتى يتسنى لها أن تطلع على كلّ شيءٍ بأكثر دقة.. وتعلم أن الأمر ليس سهلًا ولكن يجب عليها أن تجد سبيلًا.

نهضت من جلستها متّجهةً إلى أم حبيب ويداهم تفكيرها شيء، وجدت أم حبيب تطهو العشاء مُنهمكةً في عملها فبادرت بمعاونتها. سادت لحظات من الصمت، كانت مرتبكة، تذهب وتجيء من حولها. شعرت أم حبيب أن هناك شيئًا تريد أن تقوله، لكنها لم تبادر بسؤالها، إلى أن تحدثت هي:

- لقد رأيت زوجك وابنك "حبيب" في المصنع اليوم.. يبدو عليهما الطيبة.

نظرت أم حبيب إليها مبتسمة:

- وأنا أثق أنهما أحباكِ أيضًا.

- تسمحين لي أن أزوركم في الليل؟

بدا على أم حبيب علامات التعجب والاندهاش من طلبها، لكنها قالت:

- بالطبع نتشرف بوجودك، ولكن هل هناك أمر حدث؟

- لا، لم يحدث شيء.. ولكني أحببت أن أقضي وقتًا معكم فهل تسمحين لي؟

- بالطبع.. تباركين البيت.

- أشكرك.

لم يكن الأمر مقنعًا بالنسبة لأم حبيب وهذا ما أحسته نادية.. فرغم بساطة تلك السيدة فإن باستطاعتها أن تفهم وجوه البشر، وما كان يبدو على نادية في تلك الأيام هو أن وراءها شيئًا تخفيه جعلها أكثر توترًا، وقد يكون لزيارتها أمر خاص به.

في مساء تلك الليلة كان الطقس باردًا، وقفت نادية مطلة من النافذة تتأمل السماء وهي تشعر بنفحات البرودة.. وتراود ذهنها تساؤلات تود أن تلقيها على زوج أم حبيب و ابنها لعلها تعثر على شيءٍ يهديها إلى الحقيقة.

ارتدت ثيابًا بسيطةً لكنها أنيقة.. فهي تريد أن تبدو واحدةً منهم دون تكلف.

وصلت إلى بيت أم حبيب فاستقبلتها وزوجها بحفاوة، كان البيت صغيرًا لكنه ممتلئ بالأفراد.. وجدت أولادهما وأحفادهما يجتمعون، وجدت الكبار يتسامرون والأطفال يملؤون البيت ضجةً وضحكًا.. فكان في ترابطهم الدفء الذي أحست به. لكنها فوجئت بوجود ضيفٍ آخر لم تكن تتوقع أن تجده هناك.. إنه الدكتور مراد، وكأنه أدرك ما تفكر به، وعرف أن من الممكن أن تكون هنا في تلك الليلة من أجل ما يجول بداخلها. ذلك الرجل الذي يختلط

إحساسها نحوه بين غضبٍ وطمأنينة، ففي لحظاتٍ تشعر بالطمأنينة إلى حديثه ولحظاتٍ أخرى يأسرها الغضب منه.

وقفت في صمتٍ وهي ما زالت لا تستوعب تلك المفاجأة التي لم تتوقعها قط، حتى قطعت أم حبيب ذلك الصمت بحديثها:

- الدكتور مراد يأتي لمتابعة صحة حفيدتي الصغيرة فقد مرضت منذ أسبوع فجاء ليتابعها بنفسه.

بادلته التحية وجلسا جميعًا. عرّفتها أم حبيب بابنتها رقية، وكانت أكبر من نادية بسنواتٍ قليلة. ابتسمت لها رقية قائلة:

- كنت أتوق لرؤيتك من كثرة حديث أمي عنك.

- ولمَ لم تأتي لتقضي معي وقتًا؟

- وكيف أذهب بهؤلاء الأولاد، فما إن أذهب بهم إلى أيّ مكان حتى تحدث كارثة بسبب شقاوتهم.

ابتسمت نادية وهي ترى عبد الله ابنها يتذمر من ذلك الاعتراف الذي أدلت به أمه، فمسحت نادية على رأسه واحتضنته، موجهةً حديثها إلى رقية:

- لا عليكِ أنتظرك يومًا أنتِ وأولادك و اتركيهم يلعبون كما يشاءون، لا تشغلي بالك بهم.

ابتسمت لها رقية قائلة:

- حسنًا، ولكن تذكري أنك من سمحتِ بذلك.

ضحكت نادية وهي تقول: "مو افقة".

شعرت بالألفة بين أفراد ذلك البيت وكأن كلًّا منهم يكمل الآخر.. فكلّ شيءٍ في ذلك البيت يبتسم، وتعلو فيه ضحكات الصغار ومرح الكبار، ولفت انتباهها مرح الدكتور مراد مع أحفاد أم حبيب؛ فتلك أول مرة تجده على غير عادته من الوقار وندرة الكلام، وتذكرت وقتها ردة فعله تجاه ذلك الطفل الذي كان يسامره في الطائرة فأدهشها أكثر ما رأت في تلك الليلة.

وفي ذلك الوقت الذي تقضيه في بيت أم حبيب نسيت ما جاءت إليه أو ربما تناست، فلقد أبت أن تقتل تلك اللحظات في ذلك البيت الذي يملأه الود والسعادة من أجل أن تحكي ما يجول في داخلها من مشاكل.

قاطع تفكيرها دكتور مراد بسؤاله:

- كيف حال السيد عارف اليوم؟

- إنه بخير.

- أشعر أنه تحسن.. يبدو أن حفيدته تجيد التمريض.

- أشكرك.. ولكني لم أفعل شيئًا يستحق الثناء، فكم أتمنى أن يعود جدي إلى صحته كما كان.. فكل ركن في البيت يفتقده.

قال زوج أم حبيب:

- سعدنا كثيرًا بقدومكما، وفتحكما ذلك البيت من جديد.

- كانت رغبة جدي.. فلقد قرر ذلك قبل مجيئنا بيوم.

قال الدكتور مراد:

- نعم، فلقد شعر أن حياته قد تغيرت بقدومك وود أن يفتح قلبه للحياة مرة أخرى.

قضت ليلةً هادئةً خفّفت عنها الكثير، فكم كانت تحتاج إلى تلك اللحظات التي تفصل تفكيرها الشاغل دائمًا. ومضت عائدةً إلى البيت بعد أن ودعها أصحاب البيت بحفاوةٍ لا تقل عن استقبالهم لها، وقد عاد معها الدكتور مراد ولم يكن بمقدورها أن تصمت عن ذلك التساؤل الذي يراودها عن معاملته لذلك الطفل الذي كان معهم بالطائرة، وهو ما يتناقض مع ما رأته تلك الليلة.

وما إن سألته حتى وقف في الطريق إثر سؤالها متسائلًا هو أيضًا:

- أكنت أبدو قاسيًا عليه؟

- لا، لم أقصد.. ولكن لم تبادله بكلمة رغم لطفه معك.

- نعم.. فقد كانت رحلتي إلى لندن في تلك المرة لأعد أبحاثًا عن مرضٍ قاسٍ لم يتبين بعد أسبابه، وذلك يتطلب مني مباشرة المرضى المصابين بذلك المرض، ووجدت من بينهم طفلًا كنت أرى في عينيه رغم براءتها تحديًا لمرضه، ووراء ضحكاته العالية لامبالاة بما يعانيه، وفي كلّ مرة كنت أحرص على ملاقاة ذلك الطفل أكثر من حرصي على استكمال بحثي، ولكن في رحلتي الأخيرة وجدته قد هزمه المرض.

نظرت نادية إليه وقد انتفض قلبها مما سمعت.. ثم أكمل حديثه:

- ولقد رأيت في عيني ذلك الطفل الذي كان يرافقنا بالطائرة تلك البراءة التي رأيتها من قبل.

أدركت نادية في تلك اللحظة حقيقة ما بدر منه تجاه ذلك الطفل، ولكن ليس ذلك فقط ما أدركته بل أثر فيها ذلك التحدي الذي كان يتسم به ذلك الطفل حيال مرضه فواجهه رغم ضعف قوته.. فترك في نفسها أثرًا في تلك المواجهة التي همت بها وإن بدا أمرها أضأل مما واجهه ذلك الطفل.

لم تتحدث قط طوال الطريق إلى أن وصلت إلى البيت فقطع صمتها دكتور مراد متسائلًا:

- لماذا قررتِ العمل في الشركة؟

- حتى أكتشف الحقيقة وما يخفيه السيد "رافح" وأواجهه إذا قام بأيّ شيءٍ يؤذي جدي.

- ولكن أتظنين أن بمقدورك أن تفعلي شيئًا؟

نظرت إليه، فما زالت تغضبها كلماته التي لم تتوقعها منه، فكم يغضبها إحساسها بنظرته لها بأنها هاربة لا تقوى على المواجهة. قالت وهي تكتم غيظها:

- نعم بمقدوري أن أواجهه.

نظر إليها وبدت على وجهه ابتسامة قائلًا:

- لم أقصد أن أقلل من مروءتك وشجاعتك ولكنك لم تفهمي ما قصدت.

ما زالت كلماته تقع في دائرة الألغاز بين الكلمة ومقصدها الذي يختفي وراءها.

هز رأسه وهو يكمل حديثه:

- ما قصدته في حديثي معك من قبل لم يكن أن تواجهي ذلك الرجل بمفردك؛ بل أن تواجهي جدك بمخاوفك وتظلي بجانبه حتى يتضح كلّ شيءٍ أمامه.

أدارت ظهرها متّجهةً إلى داخل البيت قائلة:

- ولكني قررت أن أواجهه بمفردي.

لكن أوقفتها كلماته التي جاءت على الفور:

- وقتها سأكون بجانبك.

تلك الجملة القصيرة التي جعلت قلبها يتوهج، وارتسمت الابتسامة على وجهها، لكنها لم تلتفت وأكملت السير مخفيةً كلّ ذلك التغير الذي بدا عليها في لحظةٍ بعد جملته واتجهت إلى داخل البيت، وكذلك هو لم ينتظر كلمات منها فما لبث أن مضى.

ظلت تلك الجملة تتردد بخاطرها تاركةً أثرها في قلبها مما زادها اطمئنانًا.. فكم للكلمة من قدرة تترك أثرها في النفس وتبدل الملامح.. تلك الكلمة التي تضيف إلى الحياة حياة أخرى.

استقبلت يومًا جديدًا بابتسامةٍ كان أول من ألقتها عليه هو جدها حين ذهبت لتطمئن عليه، وما لبث أن أخبرها جدها بأمرٍ سرّها أكثر، عندما قال لها:

- إن السيد "رافح" اتصل بي أمس يخبرني أنه مسافر لمدة يومين لإنهاء التعاقد في بعض الأعمال.

نظرت إلى جدها وقد بدا السرور ملحوظًا عليها حتى إن جدها شعر بذلك، لكنه أكمل حديثه:

- فما رأيك أن تنتظري لعودة السيد "رافح" وتعودين للعمل فما زلتِ تحتاجين لتوجيهه؟

نظرت إليه قائلة:

- لكني أحب أن أذهب إلى الشركة وسأجد من يعاونني إلى أن يعود السيد "رافح".

- كما تودين.

*****

ذهبت إلى الشركة واستقبلت الجميع بابتسامة ونشاط ملحوظ.. وظلت تتجول في الشركة لتتعرف أكثر على أقسامها وتطلع على بعض الأوراق التي بها تعاقدات تخص الشركة وأخرى خاصة ببعض الحسابات المدونة، فما زال الأمر بالنسبة لها طبيعيًا ولا ترى شيئًا يلفت نظرها. فطلبت أن تجتمع بموظفي الشركة لتتعرف على بعض الأشياء التي دارت في ذهنها لعل شيئًا يظهر لها يكون هو أول الطريق.

بدأت الاجتماع بتعارفها على كثيرٍ من أفراد الشركة، ثم بدأت حديثها مبتسمةً وفي نبرتها شيء من الدعابة:

- أعتقد أن اجتماع اليوم سيكون مختلفًا لأول مرةٍ بالنسبة لكم، إذ إنني أود في ذلك الاجتماع أن أتفهم منكم كيف يدور العمل.

ظهر على الجميع ابتسامات و أبدى كلٌّ منهم ترحيبه بذلك.

استرسلت معهم في الحديث لمدة طويلة وفي كلّ لحظة تكتشف مدى ذكاء جدها ومهارته في إدارة الشركة، رغم أنه لم يباشر العمل بشكل مباشر فإن حسن تخطيطه أدهشها، وفهمت من الجميع أن السيد "رافح" هو منفذ لكل ما يدور بعقل جدها، و أنه يباشر العمل بإخلاصٍ وكفاءة، وما كان لها إلا أن تبدي مو افقتها على رأيهم في السيد "رافح".

ظلت عاكفةً على الكثير من الأوراق تتفحصها، لكنها لم تتوصل لأيّ شيء، فشعرت لحظتها بالإحباط وأن الأمر ليس سهلًا أبدًا. وكان يؤرقها ذلك الإحساس بأنها قد لا تستطيع أن تصل إلى شيءٍ وأن الدكتور "مراد" كان على حق حين حدثها بأن الأمر يبدو صعبًا عندما تواجهه بمفردها، ولكن الأصعب بالنسبة لها هو أن تؤرق سعادة جدها التي ينعم بها بعد أن فقدها طويلًا.

تركت الشركة بعد أن حان وقت انتهاء العمل وقد تملكها إحساس بالحزن، لكنها كانت تدعم نفسها بكلمات أخرى.. "لعلي أجد في الغد أمرًا آخر".

فضّلت أن تسير قليلًا قبل أن تعود إلى البيت متأملةً في طريقها ذلك المبنى الذي كانت فيه منذ قليل.. فرغم ما يمتلكها من مشاعر يسيطر عليها اليأس فقد أعجبها ذلك الجانب الآخر الذي اكتشفته في جدها، وما كانت ستكتشفه إلا في ذلك المبنى معجبةً برجاحة عقله ومهارته.

مضت إلى طريقٍ جانبيّةٍ ضيّقةٍ بجانب الشركة، كانت هذه أول مرةٍ تسلكه، وشعرت أن أحدًا لم يمر منه مطلقًا.. فوجدت بابًا قديمًا هو أحد منافذ الشركة، لفت انتباهها وظنت أنه مخزن من مخازن الشركة، ولكنه لم يكن مغلقًا، تعجبت لذلك، ثم تحركت إليه ببطءٍ ولاحظت أن كلّ شيءٍ بداخله قديم ويكسوه التراب، شعرت أن قلبها ينقبض لكن فضولها كان أكبر. خطت عدة خطواتٍ حتى وجدت أمامها ممرًا طويلًا به العديد من

الحُجرات منها ما هو مغلق يعلوه قفل ومنها ما يسهل فتحه، نظرت بداخل تلك الغرف فلم تجد شيئًا يُذكر غير بعض الصناديق الفارغة. ومضت أكثر بداخل الممر وهي تتردد في الحركة إلى الأمام خوفًا من تلك الوحشة التي تسللت بداخلها، لكنها مضت إلى أن وصلت إلى نهاية الممر مستعينةً بضوء النهار الذي يتسلل من النوافذ الموجودة بداخل الممر.. فوجدت في نهاية الممر غرفةً بداخلها العديد من الرفوف تحمل عددًا من الملفات القديمة؛ فأمسكت بأحدها ومسحت من فوقه التراب فوجدت بداخله طلبات تخص الشركة قد مضى عليها زمن طويل، وكان ذلك في كلّ ملف تفتحه، فخمنت أنهم ربما يقومون بالتخلص من تلك الملفات بوضعها في تلك الحجرة بعد انتهائهم من الاحتياج إليها. والتفتت حولها وعيناها تدوران في كلّ أرجاء الغرفة حتى وجدت في إحدى زوايا صندوقًا ممتلئًا بالأوراق، وقد وُضعت فوقه أغراض كثيرة فظنت أنه قد يوجد بداخله أيضًا ملفات تخص الشركة؛ فأزالت ما فوقه من تراب وفتحته.

ولكن المفاجأة جعلت قلبها ينبض بدقاتٍ سريعةٍ تكاد أن تكون مسموعة؛ فلقد وجدت أوراقًا تخص والدها وبرفقتها نسخة أخرى من صور والدها التي وجدتها في غرفته، من ضمنها تلك الصورة التي تجمع والدها بالسيد "رافح" فأثار دهشتها ما وجدته ولم تعِ ما الأمر، ولكنها فوجئت بشيءٍ آخر كان أكثر غرابةً بالنسبة لها، فقد وجدت بعضًا من الرسائل التي كان يرسلها أبوها إلى جدها مدون عليها تاريخ الإرسال، ومن بينها رسالة مدون عليها تاريخ مولدها، فتحتها وإذا بوالدها يبشر جدها بخبر قدومها إلى الحياة متمنيًا بتلك البشرى أن يصفح عنه، وكان يطلب منه أن يسامحه.

كاد عقلها أن يفقد وعيه من تلك المفاجأة ولم تعِ ماذا بالأمر ومن أتى بتلك الرسائل إلى هنا؟!

ولكنها سرعان ما أدركت الأمر من تلك الرسالة التي وجدتها برفقة رسائل والدها والتي كادت أن تقتلها عندما علمت ما بداخلها.

كانت تلك الرسالة من رجل يدعى طلال، ولاحظت أنها مرسلة من لندن إلى السيد "رافح" وقد كتب فيها:

"لقد أتممت اتفاقنا وتعرفت على السيد سليم في لندن وأعلمته بأني من أحد المقربين إلى والده في العمل إذ نعقد بعض الأعمال معًا وتربطني به علاقة طيبة، و أقنعته أنه ما زال متأثرًا بسفره دون إذن منه حتى إنه لا يرغب في ذكر اسمه غضبًا منه، ويأبى أن يراه مطلقًا أو أن يقرأ أية رسالة منه، وأؤكد لك أنه قد اقتنع بما حدثته به حتى إنه بدا عليه الحزن والشرود لفترةٍ كبيرة، والآن عليك أن تتم اتفاقك معي وترسل لي ما وعدتني به من أموال".

شعرت كأنها تهوي من ارتفاع لتسقط على الأرض محطمة.. ودّت لو كذّبت عينيها من قسوة ما رأت فكيف سمح له ضميره وقلبه أن يفعل ذلك في والدها وجدها، كيف له أن يخفي رسائل والدها عن جدها ويستأجر من يقنع والدها بأنه لا فائدة من الاقتراب.. فهو السبب في كلّ ما حلّ بوالدها من حزنٍ خلال تلك السنوات التي عاشها بعيدًا عن والده ووالدته. هو من فطر قلب جدتها.. وأحرق قلب جدها وحده.. وجعل والدها يعيش حياته على أملٍ زائفٍ لن يتحقق أبدًا.

ولكن كيف وقد أبدى جدها ندمه في بداية لقائها بها على عدم رده على رسائل والدها واعترف بذلك أمامها؟ فلماذا قال ذلك ولماذا لم ينكر معرفته بتلك الرسائل؟

وجدت نفسها بين تساؤلات عديدة وشعرت أن قدميها مثقلتان لا تقويان على الحركة، لكنها قاومت صدمتها مما علمت لتعود إلى البيت حتى يتسنى لها أن تعرف الحقيقة. حملت تلك الأوراق ومضت عائدةً إلى البيت لا

تشعر بالزمن وتسير بها قدماها على هونٍ حتى وصلت إلى البيت، ثم اتجهت إلى غرفة جدها، فوجدت جدها قلقًا عليها من غيابها طوال ذلك الوقت.. متسائلًا: "ما بك، أأنت بخير؟"

لكنها بادرت بسؤالٍ وعيناها تكادان تتساقط منهما الدموع:

- جدي، لماذا لم تنكر معرفتك برسائل أبي حين حدثتك عنها؟

نظر إليها وقد زادت الدهشة على وجهه قائلًا: "ماذا تقولين؟"

رددت بإصرار:

- لماذا لم تنكر معرفتك برسائل أبي؟

قام من جلسته وهو يقول:

- خشيت أن تتأثر صورته أمامك وظننت ما قاله لك ردًا على تساؤلاتك، فلم يرد أن يصارحك بالحقيقة.. لكنه لم يرسل لي أية رسالة رغم أني كنت أنتظر ولو كلمة واحدة منه لأسامحه ويعود الود الذي بيننا.

ثم نظر إليها وفي ملامحه إصرار على إقناعها قائلًا:

- ولكني أدرك أن الحياة قد أخذته فوالدك كان طموحًا لدرجةٍ قد تلهيه عن نفسه لكنه لم يكن قاسيًا قط.

مدت يدها بما تحمله من أوراقٍ قائلة:

- ولكن الدنيا لم تستطع أن تلهيه عنكم بل كان يرسل لك على مدار تلك السنوات لعلك تصفح عنه.

ورغم ما تشعر به فإنها خشيت على جدها من تلك الصدمة التي بدت على ملامحه منذ أن نطقت بكلماتها.

فقد كادت الحقيقة التي هي بطبيعتها مريحة للقلب أن تأتي على غير عادتها.. وتكون أقسى من العيش في دائرة الألغاز.

أخذ جدها يتأمل الورق فلا تدري أيقرأ ما هو مكتوب أم يتأمل ابنه عبر كلماته.. ورغم ما تملّكه من حزنٍ شديدٍ كاد يُظهر الإعياء على ملامحه فإنه

كان متماسكًا. وظل مع تلك الرسائل يقرؤها حتى علم من تلك الرسالة التي كانت بين السيد "رافح" وطلال حقيقة ما حدث.. فكانت أول مرةٍ ترى نادية في جدها ذلك الخليط من الحزن والقوة التي تنبع من الرغبة في الانتقام من السيد "رافح". لكنها لم تتحمل ما عانت منه كثيرًا وشعرت أن قدميها لم تستطيعا أن تحملاها ولم تدر بما حولها... خارت قواها واستسلم عقلها بعد ذلك العناد الطويل الذي تكفّل به... ولم تعِ إلا وهي مستريحة على وسادتها وبجوارها جدها يتطلع إلى وجهها بقلق.. بينما وقف أمامها الدكتور مراد ووقفت بجانبها أم حبيب.. ساد الصمت لحظةً حتى ربت جدها على يديها محاولًا أن يتظاهر بالهدوء حتى يطمئنها وهو يقول:

- ستكونين بخير.. وسيكون كلّ شيءٍ بخير.

قال الدكتور مراد:

- أتمنى أن تستريحي اليوم وغدًا ستكونين أفضل، وأرجوكِ لا تفكري فيما يقلقك.

لم تستطع الحديث فكان يكسوها الصمت.. فما زال ما حدث يدوي في تفكيرها ويؤلم قلبها.

استأذن الدكتور مراد بالانصراف ليترك لهما عنان الحديث، بينما طلب السيد عارف من أم حبيب أن تعود إلى بيتها، وأخبرها أنه سيظل معها ويرعاها بنفسه.

وما زالت تلزم الصمت لا تقوى على الحديث إلى أن بدأه جدها:

- كم كنت أخشى على والدك ويقلقني غيابه، وكنت أتساءل كيف له أن ينسى والده وأمه؟ فقد كان كلّ من يعرفه يشهد له بطيبته.. كنت أخشى أن يكون قد حدث له مكروه لكن كان ينتابني شعور أنه بخير.

حاولت أن تطلق سراح كلماتها المحبوسة في حلقها... حاولت أن تفضفض:

- جئت إليك باحثةً عن الدفء بجانبك، وعشت أيامًا سعيدةً إلى أن طغى القلق عليها فعكر صفوها، فكانت الشكوك تزيد بداخلي تجاه ذلك الرجل وشعرت أن وراءه شيئًا مقلقًا لا أدري كيف أتوصل إليه.

قال السيد عارف:

- و أنا كنت أشعر بذلك.

ثم نظر إليها متسائلًا:

- أتظنين أن جدك لم يكن يعلم بما يدور حوله؟ فقد شعرت منذ زمن حتى قبل عودتك بتصرفات "رافح" وكنت لا أظهر له شكوكي تجاهه، فكنت أتابع كلّ شيءٍ بصمتٍ وأطّلع على كلّ ما يقوم به ويخفيه عني من صفقاتٍ يعتقد أني لا أعلم عنها شيئًا، وأعمال يباشرها لنفسه تحت اسمي واسم شركتي وأشياء أخرى مخالفة للقانون... فما زال هناك أشخاص مخلصون يعملون لدي وكانوا يحرصون على أن يتعاونوا معي لكي أصل إلى الحقيقة كاملة.

ثم نظر إليها قائلًا:

- فأنت تعرفين أشخاصًا منهم، إنهما زوج أم حبيب و ابنها، فقد عاوناني كثيرًا لأصل إلى الحقيقة.

نظرت نادية إلى جدها مندهشةً.. ولكنه واصل حديثه:

- فكنت أؤجل مواجهته ربما لأني لم أكن أكترث لشيءٍ من الحياة واكتفيت بما في داخلي من وحدةٍ وحزن، ولكن عندما أتيتِ كانت فكرة المواجهة قد اقتربت حينها وأصبحت هي كلّ ما يدور في عقلي.. فكنت أرغب في تلك الحياة الجديدة بجانبك... بجانب حفيدتي، وكان عليّ أن أنهي كلّ ما يؤرق تلك الحياة من قلق..

ثم نظر إليها بتمعن وهو يوجه حديثه إليها كأنه يود أن يحذرها أو يريد أن يلقنها درسًا من الحياة لم تعرفه بعد:

- ولكن ليس كلّ المواجهات كما تظنين.. كلمات قاسية تلقى على الجاني بعد اكتشاف حقيقة جرمه، بل بعض الأمور تحتاج إلى تمهل لتكون المواجهة.

وقد داهمه الصمت قليلًا ثم قطع صمته قائلًا:

- والآن يجب عليّ أن أعترف لك ببعض الأمور... في الوقت الذي تحدثت لك فيه عن أني سأقوم بعمل توكيلٍ للسيد "رافح" كنت أنتظر منك ما يوحي لي بأنكِ ستظلين بجانبي، خاصةً أني كنت أعلم بشكوكك تجاهه، وسرني طلبك لمعاونتي في العمل فهذا أكّد لي ما كنت أتمناه.

ثم بدت ابتسامة على وجهه يسكنها الحزن..

- كنت تبحثين بين أوراق الشركة لعلك تعثرين على شيءٍ يدينه لكنك لم تعثري على أيّ شيءٍ لأنه كله بحوزتي، وأكثر ما سرني هو خوفك عليّ.. لكن جدك هو من يجب عليه أن يواجهه فلا تقلقي من ذلك الأمر فالموعد قريب.

لم يمض الوقت على ذلك الاعتراف الذي جعل قلبها يستكين بعض الشيء، وكأن الحزن يذهب عنها فتستريح.. ولكن قلبها يخشى أن يعود مرةً ثانية. وسكنت جفونها لتستريح، ونامت نومًا عميقًا.

وبعد عدة ساعاتٍ أيقظها صوتٌ بالأسفل لم تميزه، لكنه كان حديثًا لأكثر من شخص. ولم تستطع النهوض من سريرها فهي ما زالت تشعر بالإرهاق وثقل في رأسها.

طرقت أم حبيب الباب طرقات سريعة منادية:

- آنسة نادية... آنسة نادية.

ولم تلحق نادية أن تأذن لها... فقد فتحت أم حبيب الباب مسرعةً وفي وجهها ارتباك كبير... قالت نادية وقد قبض قلبها وازدادت دقاته:

- ما بك يا أم حبيب؟

- الشرطة جاءت وأخذت السيد "عارف".

نهضت نادية تجري مسرعة، فلم تجد أحدًا في الأسفل، وظلت تدور بين الغرف وفي كلّ مكانٍ كأنها تتفقد شيئًا تاه منها ولم تجده. حتى أوقفتها أم حبيب قائلة:

- مضوا به.

جاءتها كلمة أم حبيب كأنها ضغطت على قلبها حتى انتزعته من صدرها، فأسرعت وأبدلت ملابسها، وذهبت إلى قسم الشرطة وكان معها الدكتور مراد، والذي لم تعِ متى جاء وماذا يقول لها؟! يبدو أن أم حبيب قد اتصلت به وأبلغته فجاء ليقف بجانبها وبجانب جدها في ذلك الوقت... كلّ شيءٍ مر كالحلم الذي لم تستيقظ منه بعد... لا، ليس حلمًا بل كابوسًا تئن فيه بصمتٍ وتتمنى من قلبها أن تفيق منه.

وقفت بجوار الحجرة التي بها جدها وعيناها تنهمران دموعًا:

وسألت شرطيًّا بجوار الباب:

- ماذا حدث، لماذا قبض على جدي؟

أجابها: "لا أعرف".

نظر إليها دكتور مراد مشفقًا على حالتها وقال لها:

- لا تقلقي، السيد عارف اتصل بالسيد بليغ وهو محامٍ كبير وصديق جدك منذ زمن وهو معه بالداخل، إن شاء الله سيكون أمرًا بسيطًا.

خرج السيد بليغ بعد وقتٍ اعتصر فيه قلبها.. فنظرت له نادية مترقبةً ما سيقوله ولكنه لم يقل شيئًا فسألته:

- ماذا حدث؟

قال لها السيد بليغ:

- سأخبرك حينما نصل إلى البيت لكن علينا الذهاب فورًا.

رفضت الذهاب قبل أن ترى جدها وتعلم كلّ شيء، لكن السيد بليغ أصر على أن يذهبوا على الفور قائلًا:

- السيد عارف يعلم أنك بالخارج ولا يرغب في الخروج من مكتب المحقق قبل ذهابك، ويثقل عليه رؤيتك له مكبل اليدين.

استسلمت في نهاية الأمر عندما علمت أن ذلك هو طلب جدها ومضت معهما.

****

جلست نادية مثقلة القدمين في غرفة الجلوس تنتظر حديث المحامي لتعلم منه ما حلّ بجدها.

وبدأ السيد بليغ حديثه:

- السيد عارف متهم بإنتاج أغذية غير مطابقة للمواصفات.

اندهشت نادية لحديثه وقالت:

- لكن هذا غير صحيح... أنا تابعت العمل بنفسي واطلعت على كلّ شيءٍ ولم يكن فيها أيّ شيءٍ مخالف للمواصفات.

بادر السيد بليغ بسؤاله:

- أيّ شركة تقصدين؟

تعجبت لسؤاله وقالت:

- ماذا تعني؟ فجدي لا يملك إلا شركة واحدة للأغذية، ومصنعًا للأرز.

و افقها الدكتور مراد قائلًا:

- فعلًا، السيد عارف لم يكن لديه غير شركة واحدة لصناعة الأغذية.

قال السيد بليغ:

- نعم، أعرف ذلك منذ زمن، وهذا أيضًا ما قاله السيد عارف في التحقيقات، ولكن الحقيقة عكس ذلك، فالسيد عارف لديه شركة أخرى لصناعة الأغذية.

لم تستطع أن تصدق ما قاله وردت وقد زاد توترها:

- مستحيل.

قال السيد بليغ:

- لكن السيد "رافح" قدم مستندات بذلك.

سأل الدكتور مراد المحامي:

- وأين السيد "رافح"؟ علمت أنه سيسافر فور خروجه من قسم الشرطة لإنجاز بعض الأعمال الهامة، فالسيد "رافح" قد قبض عليه في تلك الشركة التي كانت تخزن بعض المواد التي تدخل في إعداد الأغذية منتهية الصلاحية، ونفى صلته بذلك مستندًا بأن الشركة باسم السيد عارف وليست باسمه، وأنه لا يعلم مطلقًا أن الشركة تقوم بذلك العمل.

بادرت نادية بسؤال:

- أين تقع تلك الشركة؟

- بدمشق.

- دمشق! أنا متأكدة أن جدي ليس له إلا شركة واحدة لصناعة الأغذية.

قال الدكتور مراد:

- السيد "رافح" رتّب أوراقه جيّدًا.

- نعم هو من فعلها... أقام شركة بأموال واسم جدي ليكسب منها أكثر دون درايته وإذا حدث وقبض عليه تكون المسؤولية على جدي.

قال السيد بليغ:

- قد يكون حديثك صحيحًا، عمومًا سأتتبع ذلك الخيط وسنصل للحقيقة بإذن الله.

و اتجهت بنظراتها تجاه المحامي، وقد انبعث من عينيها قوة، وكأنها ترتب لقرارٍلم تتردد في البوح به في تلك اللحظة:

- بل أنا من سيقوم بالمر افعة عنه.

نظر إليها السيد بليغ والدكتور مراد في دهشةٍ من طلبها ولكنها أكملت حديثها:

- لو تسمح لي أن أعمل لديك في المكتب فبذلك أستطيع أن أوكل في قضية جدي و أبحث عن الحقيقة بنفسي، وسأكون شاكرةً لك لو و افقت.

نظر إليها السيد بليغ متسائلًا:

- أنت محامية؟ فأنا لم أكن أعلم ذلك؟

- نعم، درست المحاماة في لندن وعملت في مكتب كبير هناك... فأنا أحق بأن أتر افع عن جدي.

تمهل السيد بليغ في رده للحظاتٍ ظلت تترقبها ثم قال:

- مو افق... أنتظرك في الغد لتبدئي إجراءات التكليف بالقضية.

اطمأن قلبها.. وفي نفس الوقت شعرت بمسؤولية ما ستواجهه، ولكنها كانت تؤمن بصواب قرارها وقد استشعرت ذلك في ملامح الدكتور مراد.

****

مرت الجلسات الأولى من تلك القضية، كان الأمر مبشرًا بتلك الأوراق التي وجدتها مع جدها لكنها لا تدري ما وراء ذلك الرجل الذي اتضح لها مدى ذكائه في ترتيب أور اقه، كان النوم كعابر سبيل على جفونها في تلك الأيام، ظلت تعد لتلك القضية، قضية دفاعها عن جدها وعن سعادته وسعادتها،

تدافع عن تلك الحياة الدافئة التي كانت تقضيها بجانبه، فهي قضيتها الأولى والأخيرة... هي قضية الحياة، تدافع عنها وهي مترقبة الغد متسائلة ماذا سيكون بعد؟

استيقظت بعد عدة ساعات، ولم تطق المكوث في غرفتها فاتجهت إلى الحديقة، وقفت تسقي الورود وهي تحدثها متسائلة: "أيمكن لشمس الدفء أن تشرق من جديد؟"

جاءتها الإجابة من صوت تعرفه جيّدًا:

- نعم يمكن أن تشرق شمس الدفء من جديد.

التفتت، فإذا به دكتور مراد يردد كلمات أخرى مبتسمًا: "ولعله يكون قريبًا".

- أشكرك على ما فعلته من أجلي، ولكني...

- تستطيعين.

نظرت إليه ولم تعِ ماذا يقصد! فقالت له:

- ما زال حديثك يبدو لغزًا بالنسبة لي.

قال مبتسمًا:

- أقصد أنك تستطيعين مواجهة الطريق من أجل ما تبحثين عنه.

تنفست بعمقٍ ثم قالت:

- ولكن جدي يواجه طريقًا قاسية.

- ولكن لديك شيئًا آخر عليكِ أن تقومي به.

فتساءلت منتبهة: "ماذا؟"

قال الدكتور مراد:

- حياة جديدة تصنعينها... تزيلين قسوتها وتملئينها بالدفء.

كانت كلماته تعطيها قوة على إكمال الطريق، فتشعر أن بإمكانها أن تنتصر على كلّ المعارك التي تواجهها.

(٩)
بداية الطريق

فكرت كثيرًا من أين تسير لتكشف سر ذلك الرجل الذي بسببه أُلقي جدها في الحبس، وجلست في تلك الليلة تفكر كثيرًا، فأصبح الوقت يداهمها، وفي كلّ جلسةٍ من جلسات القضية تطالب بالتأجيل، لكنها ما زالت لم تكشف عن أيّ شيء، فكم هو دهاء ذلك الرجل!

قررت أن تسافر دمشق وأن تحاول التقصي عن تلك الشركة بنفسها عن مقربة، وقد وافقها السيد بليغ على قرارها وأعطاها تليفونًا لمحامٍ صديقٍ له، ليساعدها في جمع المعلومات عن كلّ ما تريد معرفته، وبالفعل سافرت متّجهةً إلى دمشق، ولكنها لم تُعلم الدكتور مراد حتى لا يخالفها القرار، فهي أصبحت تشعر بخوفه عليها وكان ذلك الإحساس يغمرها بسعادةٍ كبيرة، ولكنها الآن بحاجةٍ لقرارات تأخذها وتسعى لتحقيقها دون أن توقفها مشاعرها.

وصلت إلى دمشق واستدلت في بادئ الأمر على الشركة وذهبت إلى مقرها لتشاهد المكان جيّدًا لعلها تصل إلى أيّ شيءٍ كما حدث في حلب، وصلت الشركة لكنها كانت مغلقةً بأكملها ولم تستطع الوصول إلى أيّ شيءٍ ولا حتى من أصحاب المحال المجاورة لها إلا ما هو معروف لدى الجميع.

وقررت أن تتصل بالمحامي الذي حدثها عنه السيد بليغ، وبالفعل اتصلت به وذهبت لمقابلته.

وصلت إلى مكتب المحامي والذي يوجد على أعلى باب مكتبه لافتة كبيرة مكتوب عليها اسمه "الأستاذ أصيل بدر... محامي".

استقبلها وعرفته بنفسها، فرحّب بها قائلًا:

- أهلًا بك، فقد اتصل بي السيد بليغ، ولم يقل لي أيّ تفاصيل عن الأمر الذي أتيتِ من أجله، لكنه ترك الأمر لك عندما تقررين أن تأتي لتخبريني أن أساعدك. و أنا سأكون سعيدًا لمساعدتك.

- أشكرك، و أنا بالفعل أود المساعدة.

وقصت نادية على السيد أصيل تفاصيل قضية جدها، وشعر من خلال قصتها أن الأمر ليس بهين، وأن التمكن من زلات السيد "رافح" ليس يسيرًا، لكنه رأى فيها عزيمةً على مواجهة الأمر مهما كانت نتائجه، فقال لها:

- سأساعدك، ولكن أخبريني من أين تريدين أن تبدئي.

قالت بحماس:

- أريد أن أعرف تفاصيل عن تلك الشركة، ومع من تتعامل تجارتها ومتى كان يتردد عليها السيد "رافح"، وهل له أشخاص مقربون يعملون معه بداخل تلك الشركة؟

قال السيد أصيل:

- لا تقلقي، غدًا بإذن الله سيكون لديك معلومات عن كلّ تلك الأسئلة.

- أشكرك و أنا ممتنة لمساعدتك لي.

أعطته رقم تليفون الفندق الذي تقيم فيه ليتصل بها في الغد عندما يتوصل إلى شيء، وقررت أن تتمشى بعض الوقت لتتعرف على تلك المدينة وتلهي نفسها في ذلك الوقت الذي شعرت به كأعوام تمر عليها، سارت تتجول في المدينة وتنبهر بجمالها، فكم هي جميلة دمشق بتاريخها القديم الذي يصفه كلّ شارع من شوارعها، وتلك الرائحة التي تصف عبق الزمان وأصالته! كانت حريصةً وهي في لندن على التعرف على كلّ مدن بلدها، وتذكرت أنها قرأت عن دمشق عاصمة وطنها، تلك المدينة التي هي من أقدم المدن في التاريخ وتراثها الذي يؤلف عنه القصص ويكتب عنه الكتب، فلم تنعم عينها

فقط بالنظر إلى جمالها بل ارتاح أيضًا صدرها عندما تنفست هواءها. وظلت تتجول فيها حتى حل عليها المساء فوصلت إلى الفندق تنتظر الغد بشغفٍ لعل شيئًا تجده يكون هو بداية الطريق إلى نجاة جدها.

ظلت جالسةً في الحديقة منذ الصباح الباكر، فلم تغفل عيناها طيلة الليل إلا سويعاتٍ قليلة، كانت جالسةً تتصفح إحدى المجلات لكن ذهنها كان شاردًا إلى مكانٍ آخر، تفكر كيف هو حال جدها، وكيف ستخرجه من تلك القضية. أفاقت من شرودها على صوت أحد موظفي الفندق يبلغها بوجود اتصالٍ لها، ذهبت مسرعةً فإذا به السيد أصيل يدعوها إلى مكتبه. كاد قلبها يطير من مكانه، ويتردد على عقلها سؤال: "هل استطاع أن يصل إلى شيء؟"

ذهبت مسرعةً إلى مكتب السيد أصيل، ولم تنتظر لتلتقط أنفاسها فسألته:

- هل وصلت إلى أيّ معلومة؟

- نعم، ولكن أرجوك تفضلي بالجلوس أولًا.

جلست ولم تنطق بكلمةٍ وهي تنظر إليه بإمعان ليبدأ حديثه على الفور. وبدأ السيد أصيل بالحديث قائلًا:

- جاءتني معلومات أن السيد "رافح" ظل هنا لمدة ثلاثة أسابيع، واليوم قد عاد إلى حلب مرة ثانية.

- إذًا فهو قد عاد إلى هنا عندما تم القبض عليه وأخرج نفسه من القضية بعدما قدم تلك الأوراق التي تثبت ملكية جدي للشركة.

- ومعنى ذلك قد يكون أن الشركة ما زالت تعمل ولكن من الباطن، ولو استطعنا إثبات ذلك ستنتهي القضية لصالح جدك خاصةً أن جدك لم يقم بعمل توكيلٍ للسيد "رافح".

- صحيح، ولكن لن أستطيع أن أصل إلى الحقيقة دون الوصول إلى أحد معاونيه، فإن كان دهاء السيد "رافح" يمنعني من مواجهته، فمن الممكن أن أستطيع كشف ألاعيبه من خلال معاونيه، فلا يمكن أن يفعل كلّ ذلك بمفرده.

- بالفعل، لقد علمت أن هناك شخصًا يعتمد عليه، وشاهده كثير من الناس معه داخل الشركة وخارجها.

سألته نادية بشغف:

- من هو؟ وكيف أستطيع أن أصل إليه؟

- للأسف لم أستطع الوصول إلى عنوان له، يبدو أنه لا يستقر في مكانٍ واحد، ولكن لا تقلقي فأنا ما زلت منتظرًا معلومات عنه، لعل أحد مَن وكلتهم بالأمر يستطيع الوصول إلى أية معلومات عنه.

ولم تمر إلا دقائق حتى جاء اتصالٌ للسيد أصيل، بدا عليه الاهتمام وهو يستمع إلى المتحدث وينظر إلى نادية مما جعلها تستنتج أن الاتصال يخص تلك المعلومات المنتظرة. وبعد إنهاء الاتصال سألت نادية السيد "أصيل":

- هل هناك معلومات أخرى؟

أجابها السيد أصيل:

- نعم، فقد تم الوصول إلى مسكن ذلك الرجل، لكنه لم يكن موجودًا، وعند سؤال جيرانه قالوا إنه كان يتلوى من الألم في منتصف الليل وتم نقله إلى المستشفى.

وقفت نادية عازمةً على الذهاب، فسألها السيد أصيل:

- هل من الممكن أن أعلم ما الذي تودين القيام به؟ لعلي أستطيع مساعدتك.

- سأذهب إليه في المستشفى وأحاول معرفة أيّ شيءٍ منه.

- وهل تعتقدين أنه سيخبرك بأيّ شيء؟ بل قد يتسبّب ذلك في تعقيد الأمر أكثر.

- لا أعلم ولكن يجب أن أفعل شيئًا، فليست لدي طريق أخرى.

- إذًا سآتي معك.

- لا، أشكرك، سأذهب إليه بمفردي حتى لا يصيبه القلق ويتهرب من الإجابة عليّ، فأنا لن أخبره بحقيقة هويتي.

- حسنًا، ولكن عليك أن تطمئنيني، وإذا رغبتِ بشيءٍ بلغيني به على الفور.

- بالتأكيد، أشكرك.

اتجهت نادية إلى المستشفى بعدما أخذت عنوانها من السيد أصيل، وصلت وسألت عن ذلك الرجل الذي يدعى بكر حتى وصلت إلى غرفته، فصادفت إحدى الممرضات تخرج من غرفته فسألتها نادية:

- هل هذه هي غرفة السيد بكر؟

أجابتها الممرضة:

- نعم، ولكنه في غيبوبة. هل أنتِ تقربين له؟

- لا، ولكني أعرفه، ووددت أن أطمئن عليه. ولكن من ماذا يعاني؟

- لقد أصابه تلف في إحدى كليتيه والكلية الأخرى تعاني، وإن لم نستطع إنقاذه سيكون من الصعب أن يعيش طويلًا.

صدمت نادية مما سمعت، فلم تدر ماذا تفعل، ذهبت الممرضة وما زالت نادية تقف أمامها حتى فتحت باب الغرفة وألقت نظرةً عليه، رجلٌ يبدو في عمر الخمسين، قصير القامة، وممتلئ الجسم بعض الشيء، ممدد على سريره لا يتحرك وحوله أجهزة متصلة كلها بجسده عن طريق أسلاك،

ولا تعلم أتشفق عليه أم تعاتبه في نفسها إن كان قد شارك في دخول جدها السجن.

خرجت من المستشفى وظلت تسير في الطريق، وكل الأحداث التي مرت عليها منذ مجيئها إلى وطنها تدور في عقلها، وشعرت بالخذلان، فهي لم تستطع أن تصل إلى شيء، وتذكرت وقتها كلمات الدكتور مراد التي تشعرها بالقوة وتذكرت تحفيزه لها، فكم تحتاج إلى سماع كلماته في ذلك الوقت! وصلت إلى الفندق وقد قررت أن تظل في دمشق عدة أيامٍ لعل هذا الرجل يفيق من غيبوبته وتستطيع التحدث إليه، فليس لديها حل آخر.

وظلت تتردد على المستشفى كلّ يوم، ولم يكن شيء يتغير، فما زال ممددًا على سريره فاقد الوعي حتى كادت أن تيأس، ولكن الأمر تغير بعد عدة أيام، عندما ذهبت إلى المستشفى ورأتها الممرضة فبشرتها بابتسامةٍ أنه استرد وعيه لكن ما زالت حياته في خطر.

أسرعت نادية إلى غرفته لكنها قبل أن تدخل فكرت كيف ستعرف نفسها له، وقررت أن تقول أنها تعمل في الشركة التي بحلب وهي مبعوثة إليه من قبل السيد "رافح"، ثم دخلت تتطلع إليه فوجّه نظره إليها، فحاولت أن تسيطر على قلقها فحدثته:

- سلامتك، هل تسمح لي بالدخول؟

أشار برأسه وما زال ينظر إليها ويتبعها بنظراته حتى جلست على مقعدٍ بجواره. وظل الصمت رفيقهما حتى عزمت على الحديث:

- أنا نوال، قد أرسلني السيد "رافح" للاطمئنان عليك.

صمتت قليلًا وهي تتأمل تعبير وجهه حتى تطمئن أنه لم يشك بها، ولكن كان تعبير وجهه لا يوحي بشيء، فقط ينظر إليها بوجومٍ دون أن تتحرك عنها عيناه. فزاد من توترها ولكنها حاولت أن تفتح معه حديثًا آخر لعلها تكسر ذلك الصمت:

- أتمنى أن يكون وجودي خفيفًا عليك، جئت فقط لأرسل لك سلام السيد "رافح"، فهو قلق عليك، فهل لديك أيّ طلب أبلغه به؟

لكنه لم يحرك ساكنًا للحظات، كان كشخص شارد طال شروده، وهذا كان يزيد من توترها، حتى همت بالوقوف لتنصرف، ولكنه صدمها بكلماته التي أصدرها بصوت يبدو عليه الوهن والتعب:

- أنتِ نادية.

زادت الصدمة من توترها حتى إنها عقدت لسانها وجعلتها غير قادرة على الحركة ولا على إبداء أيّ تصرف، وظلت تفكر "كيف عرفني؟ هل شاهدني في شركة جدي في حلب دون أن أدري؟ وكيف سأخرج من هذا المأزق وأجعله يتكلم بما أريد؟"

قطع تفكيرها حديثه بنظراتٍ ثابتةٍ لم تتحرك قط:

- أعلم أنك أتيتِ لتعرفي مني الحقيقة، و أنا سأخبرك بالحقيقة، حقيقة لم تتخيليها قط، هي أبعد من خيالك وتوقعاتك.

كاد قلب نادية أن ينخلع من مكانه، فقد تملك الخوف كلّ مشاعرها، رغم راحتها بأنها أخيرًا وجدت بداية الطريق التي توصلها إلى كشف ألاعيب السيد "رافح"، قالت له بصوت مهزوز يملأه الشغف لمعرفة الحقيقة:

- أرجوك تكلم، فحياة جدي متعلقة بتلك الحقائق التي ستقولها لي.

حرك وجهه بهدوء بالموافقة، وحاول ابتلاع ريقه الجاف ثم قال:

- سأقول كلّ شيءٍ ولكن ليس هنا بل في المحكمة.

قالت بغضبٍ يكسوه التوتر:

- ولمَ ليس هنا؟ أرجوك تكلم.

- الحقيقة أكبر من أن تقال هنا، يجب أن يتم القبض على السيد "رافح"، و أنا سأعترف بكلّ شيء.

وقفت من فورها وقالت:

- إذًا سأبلغ الشرطة، وأجعلها تستجوبك، ولكن إن كانت لعبة منك للهروب فسأصل إليك مهما ذهبت.

حرك رأسه موافقًا، بينما ذهبت هي مسرعةً لتبلغ الشرطة، ثم اتصلت بالسيد أصيل ليلحقها إلى المستشفى في الوقت الذي ستأتي به بالشرطة إلى هناك. كانت تركض كي تصل في أقرب وقت، تريد أن تسبق الزمن، وتلحق للعودة إلى بوابة الطريق التي وجدتها لتُخلِّص جدها قبل أن تنغلق مرةً أخرى. ووصلت إلى المستشفى ومعها ضابط، والتقت بالسيد أصيل عند غرفة بكر، دخلا جميعًا لغرفته، فوجدوه ما زال ممددًا على نفس حالته ينظر إليهم في ترقب، تنفست نادية الصعداء، وبدأت نبضات قلبها تستقر، ولكنها شعرت برعشة بكر وهو يترقبهم.

سأله الضابط:

- أنت المدعو بكر؟

- حرك رأسه بالموافقة ببطء، وكأنه نسي من هو.

سأله الضابط:

- هل لديك أقوال تخص القضية التي اتهم فيها السيد عارف؟

أجابه بكر وكانت تزداد رعشته:

- نعم، فالسيد "رافح" قام بتزوير توقيع السيد عارف، وتشاركنا معًا في أعمال كثيرة كنت أساعده فيها، حتى جاء الوقت ليتخلص مني، فهو سبب وجودي الآن في المستشفى، حاول قتلي ليتخلص مني.

وفي تلك اللحظة دخل مدير المستشفى يتساءل:

- هل هناك أمر حدث؟

سأله الضابط:

- أريد أن أعرف ما هو تشخيص حالة بكر؟

- إحدى كليتيه قد تلفت والأخرى نحاول إنقاذها.

- وهل هناك سبب غير طبيعي أدى إلى ذلك؟

- لا، لم يظهر شيء غير طبيعي.

صرخ بكر نافيًا قول مدير المستشفى:

- لا، بل هو من أعطاني ذلك الدواء، أنا أعلم تأثيره جيّدًا.

نظرت نادية والسيد أصيل إليه بدهشة، وظلت التساؤلات تراودهما، هل ذلك صحيح؟ أيمكن للسيد "رافح" أن يصل إلى ذلك الحد من الإجرام بقتل مساعده؟ ولكن كيف؟

قطع تفكيرهما الضابط بحديثه لمدير المستشفى:

- أرجو إجراء اللازم للتأكد من كلام المتهم، وسأنتظر منكم النتائج.

و افق مدير المستشفى على طلب الضابط، وأمر الضابط بنقل المتهم إلى مستشفى بحلب بعد أخذ عينات منه لمتابعة التحقيقات هناك.

وصلت نادية إلى حلب، وكان أول شيءٍ قررت القيام به هو زيارة جدها لتبشره بما وصلت إليه، وبالفعل ذهبت لزيارة جدها والذي لم يكن بمفرده، فقد سبقها دكتور مراد، فسلمت على جدها بشوق، ووجدت على وجه دكتور مراد تساؤلات عديدة يغلفها عتاب لم يصرح به.

جلست وقصت على جدها كلّ تلك التفاصيل، التي شرحت صدره كثيرًا. قال السيد عارف:

- الجلسة الأخيرة بعد ثلاثة أيام.

قالت نادية:

- نعم، وسوف تعود معي إلى البيت بإذن الله.

- ولكنني قلق من أن يهرب "رافح" ولا نستطيع الوصول إليه.

قال دكتور مراد:

- لا تقلق، سيتم القبض عليه قبل أن يعلم أيّ شيءٍ بإذن الله.

خرجت نادية والدكتور مراد من غرفة الزيارة وقد بدا عليها القلق...

قال الدكتور مراد:

- لا تقلقي سيمر كلّ شيء، عمومًا فقد أنجزت شيئًا كبيرًا في القضية، وقد أثبتِّ قدرتك على مواجهة الصعاب.

نظرت إليه لترى أكلامه استهزاء بها؟ أم هو يقول ما في قلبه؟

ثم أكمل حديثه:

- حتى إنكِ أصبحتِ تفاجئينا بقراراتك فوجدناكِ قد سافرتِ إلى دمشق دون أن تبلغي جدك.

شعرت أن كلامه به عتاب خفي جعله وراء ستار من كلماته التي كانت تغيظها سابقًا، نعم كانت تغيظها في السابق أما الآن فهي تخفي ابتسامةً بداخلها عند سماعها، لا تعلم كيف تبدل شعورها للنقيض من تأثير كلماته عليها، أصبح يروقها غموض كلماته، وأصبحت لا تغضب منها بل يطرب قلبها بها.

حاولت أن تنهي ذلك الحوار حتى لا يظهر على وجهها ما يخفيه قلبها، فقالت:

- كنت أخشى أن يقلق جدي، وأن يعتبرني أجازف بالمخاطرة بنفسي من أجل أن أصل إلى الحقيقة دون مشاركته.

لم تكن تقصد جدها فقط ولكنها قصدته أيضًا، فهو من قال لها، لا تواجهي ذلك الرجل بمفردك، وقد وعدها بأن يكون بجانبها إن قامت بمواجهته. فقد تعلمت منه تلك الطريقة، ذلك الكلام الغامض المستتر الذي هو سمته منذ أن عرفته.

خرجت من قسم الشرطة هي والدكتور مراد فوجدت عربة الشرطة ينزل منها السيد "رافح" مكبل اليدين، شعرت بفرحةٍ كبيرةٍ وراحةٍ غمرت قلبها.

ومرت ثلاثة الأيام عليها في شغفٍ وتوتر، تقرأ أقوال بكر التي ما زال بها الكثير من الغموض، فقد أصر أن يحتفظ ببعض أقواله ليقولها في المحكمة، وقد ظهرت الفحوصات التي أُجريت لبكر والتي حصلت عليها مع أقواله وتبين منها أنه أخذ جرعات من دواء يسبب تلف الكليتين ولا يلبث أن ينتشر في الجسم حتى يقوم بالقضاء على الشخص الذي يتناوله.

كان السيد عارف يقف في القفص وبجواره السيد "رافح"، وكان ذلك المشهد ليس بهين على نادية، إلا أن كلمات الدكتور مراد الذي جلس بجوارها كانت تهون عليها: "سيمر الوقت وتعود تلك السعادة التي فقدتها وسيخرج جدك بإذن الله". وكانت المحكمة مكتظة بالناس، وكان من أول الحضور السيد راغب محامي وصديق السيد عارف، أتى ومعه الكثير من العمال الذين يحبون السيد عارف، وقد حضروا ليشهدوا على حسن خلقه معهم طوال تلك السنوات التي عملوا بها في شركته، ويشهدوا أيضًا على كلّ ما شاهدوه من سلوك السيد "رافح" معهم من سوء معاملة، ولكن كانت القضية قد حسمت سريعًا باعترافات بكر وحده، حسمت ولكنها تركت صدمة كبيرة كانت غير متوقعة.

وقفت نادية أمام القاضي تشرح له تفاصيل القضية، وكم خدع السيد "رافح" جدها السيد عارف بكثير من المخالفات القانونية التي زور فيها توقيعه، كما أنها وضحت للقاضي سبب الضغينة التي كان عمرها سنوات طويلة فأَطْلعتْ القاضي على تلك الرسائل التي وجدتها.

وفي تلك اللحظة نفى السيد "رافح" مطلقًا كلّ ما قالته نادية قائلًا:

- لم أعرف شيئًا عن تلك الرسائل، ولم أقم بأيّ شيءٍ مما قالته.

حولت نادية نظرها منه إلى القاضي وقد امتلكها غضب من إنكاره، ثم طلبت من القاضي طلبًا قائلة:

- أرجو من حضرتكم أن تستدعوا الشاهد الذي سيثبت اتهامات السيد "رافح".

أمر القاضي بدخول الشاهد، فدخل بكر على كرسي متحرك يقوده أحد العساكر حتى استقر به أمام منصة القاضي وبجوار نادية.

وبدأ القاضي يستجوب الشاهد، وقد ألقت نادية نظراتها على السيد "رافح" الذي كان في وجوم كبير، كأنه تحول لتمثال لا يتحرك مثبتًا أنظاره على بكر... سأل القاضي "بكر" بعد أن جعله يقسم القسم:

- هل أنت المدعو بكر توفيق؟

ظل بكر صامتًا وكأنه فقد النطق، ترتعش أوصاله، حتى جمع قواه وتحدث فكانت أول الصدمات:

- لا، فتلك البطاقة التي أمام المحكمة مزورة.

ساد الصمت للحظةٍ أخرى كان يستجمع فيها قواه قبل أن يعترف بكلّ شيءٍ ثم أردف قائلًا:

- بل اسمي طلال.

كان جميع من في القاعة ينظرون بعضهم إلى بعضٍ في صمتٍ رهيبٍ وتتملّكهم الدهشة، وكانت التساؤلات تزدحم في عقل نادية: "أهو ذلك الرجل الذي تبادل الرسائل مع السيد "رافح" وتعاون معه في خداع والدها ليأس من التواصل مع جدها؟"

وكان حديثه الذي أكمله إجابةً على سؤالها:

- أنا من استأجرني السيد "رافح" في كثير من الأعمال منذ سنوات طويلة، فأنا أعرفه منذ ثلاثين سنة، كنت شابًا صغيرًا وكان يدهشني ذكاؤه الذي استطاع أن يحقق به الكثير من الأموال وأن يزيح من أمامه كلّ العقبات، فتقربت منه وطلبت منه أن يساعدني على السفر لكي أبدأ حياةً أستطيع من خلالها أن أصبح رجل أعمال مثله، وبالفعل ساعدني في السفر إلى لندن ولكن كان لهذا ثمن كلما دفعت قسطًا منه غمرني بالمال الذي جعلني لا أكترث لخطورة ما سأقوم به، حتى أصبحت داخل دائرة علمت أنه من الصعب الخروج منها.

صرخ السيد "رافح":

- إنه يكذب، أنا لم أعرفه ولم أره قط.

أسكت القاضي السيد "رافح" بعنف ثم وجه القاضي سؤاله لطلال:

- وما هي تلك الأعمال الذي طلبها منك لتقوم بها في لندن؟

في البداية طلب مني أن أحاول إقناع السيد سليم بأن محاولته للتقرب من السيد عارف والده باتت مستحيلة وأنه لا يطيق سماع اسمه، وحققت ذلك بالفعل ثم أرسلت له خطابًا أعلمه بأني قد أنهيت مهمتي وطالبته بإعطائي المال الذي وعدني به عند الانتهاء من المهمة، وبالفعل قام بإرسال المال لي، فزاد ارتباطي به وكنت أُنفِّذ كلّ ما يقوله لي من أعمال سواء بخصوص صفقات غير قانونية يريد إنهاءها في لندن أو مراقبة السيد سليم التي كنت أقوم بها من خلال العمل كعامل في مصنع السيارات وكنت قريبًا منه في العمل إلى حد كبير، ومرت السنوات حتى جاءني اتصال من السيد "رافح" يطلب مني طلبًا، شعرت وقتها بمدى خطئي لأشترك مع ذلك الرجل في

كلّ تلك الأعمال. ولكن كان قد فات الأوان ولم أستطع الرجوع أو الرفض خاصةً أنه هددني بالقتل إن لم أُنفِّذ طلبه.

وأشار طلال في جملته الأخيرة إلى السيد "رافح"، وفي تلك اللحظة صرخ السيد "رافح" ولكن في تلك المرة كانت صرخاته قوية ترج جدران القاعة وهو يقول:

- كذب.. إنه يكذب.. أنا لم آمره بشيء... هو من قام بكلّ شيءٍ بمفرده.

أسكته القاضي وتوعّده بمعاقبته إن لم يصمت، ثم سأل القاضي "طلال":

- وما هو ذلك الطلب الذي طلبه منك؟

نظر طلال إلى نادية، وكانت نظراته كلها أسى وخوف وندم، ثم قال:

- لقد طلب مني أن أقتل السيد سليم.

أصبحت أصوات الناس في القاعة عالية فقد كان ما قاله أشبه بالحلم، وكانت نادية تنظر إليه وقد زادت ضربات قلبها وأحست بأن قدميها ترتعشان، وأشارت بإصبعها إشارةً برفضها ما قال وقد وجهت حديثها إلى القاضي وهي تقول بصوتٍ مرتعش:

- ولكن أبي لم يمت مقتولًا، بل كان يعاني من تلف في كليتيه.

أوقفتها كلماتها الأخيرة، وكأنها قد تذكرت شيئًا لم يكن يخطر على بالها، فلقد أصابه ما أصاب ذلك الرجل المدعو "طلال"، إذًا فهو قد قام بقتل والدها بنفس الطريقة التي حاول السيد "رافح" أن يقتله بها!

أكمل طلال حديثه يؤكد به ما قالته نادية في نفسها:

- كنت أضع للسيد سليم في مشروبه الذي كنت أصر أن أعده له بنفسي في الشركة التي كنا نعمل بها دواءً يقوم بإتلاف الكلى، ويعمل على إبطاء وظائف الجسم حتى يؤدي للوفاة دون أن يظهر ذلك في الفحوصات العادية،

وهو ذلك الدواء الذي وضعه لي السيد "رافح" في مشروبي ليتخلص مني أنا أيضًا بعدما انتهت حاجته لي، فكان يريد أن يتخلص من الجميع، من السيد سليم أولًا ثم نادية وبعدها يتفرغ ليتخلص من السيد عارف، ثم مني.

لم يتحمل السيد عارف صدمة قتل ابنه حتى خارت قواه وحملوه من القفص إلى الطبيب المسؤول عن حالات السجناء، في الوقت الذي كانت نادية قد فقدت السيطرة على قدميها فجلست وعقلها مشوش من تلك الصدمات التي تكالبت عليها. ولم تستطع حتى أن تنتبه لحديث الدكتور مراد، والذي كان يبدو عليه القلق لحالتها.

ولكن استجواب القاضي لطلال لم ينته بعد فسأله:

- وكيف كان يريد أن يتخلص من نادية؟

أجابه طلال:

- كلفني السيد "رافح" بالتحدث مع مستر جاك مدير مكتب المحاماة الذي كانت تعمل به نادية، وبالفعل قمت بالاتفاق معه مقابل مبلغ من المال ليتخلص منها، خاصةً أنه كان لدي علم أنه لا يحبها، ولكنه أبلغني أنه سيتمهل على تنفيذ ذلك الأمر لأنه يحتاجها في بعض القضايا، ثم سيقوم بالتخلص منها. ولكنها اختفت فجأةً قبل أن ينفذ الأمر، وهذا ما علمته قريبًا. وتفاجأ السيد "رافح" بعودتها إلى سوريا عندما تعرف عليها في بيت السيد عارف وكان يشاهدها لأول مرة، وفي ذلك الحين كنت قد عدت إلى سوريا فعرض عليّ صورة إثبات شخصيتها التي أخذها منها ليتأكد من كونها هي بحجة إخلاصه لجدها، وكنت قد شاهدتها أكثر من مرةٍ مع أبيها في أواخر أيامه، فاستنتجت أن مستر جاك قد خفق في التخلص منها فأكدت للسيد "رافح" أنها هي ابنة السيد سليم وحفيدة السيد عارف، ومنذ ذلك الوقت

أصبح شغله الشاغل أن يحصل على كلّ ما يمتلكه السيد عارف من خلال أوراق مزورة.

كانت كلّ تلك الاعترافات كفيلة أن تقضي على قوى نادية، ولم تشعر إلا وهي ممددة على سريرها وترى حولها جدها الذي اكتسى وجهه بالحزن وكأنه هرم، وبجانبه الدكتور مراد الذي كان يتابع حالتها باستمرار.

ومرت الأيام تسحب هول الصدمة من عقولهم شيئًا فشيئًا لكن مرارتها ما زالت في حلقهم، وقد علمت بعدها أن السيد "رافح" و"طلال" قد سُجنا وينتظران القضاء الأخير على أفعالهما والتي غالبًا ما ستنتهي بحبس السيد "رافح" سنوات ليست بقليلة وإعدام طلال لأن من ضمن جرائمه قتل السيد سليم بنفسه.

استعادت قواها قدر المستطاع لتكمل طريقها التي لم تنتهِ بعد، فقد أدركت خطأها بالهروب من مشاكلها، وأدركت أنه كان يجب عليها أن تواجهها وأرادت أن تصلح ذلك الخطأ فقررت أن تسافر إلى لندن لتصحح خطأها وتواجه مسترجاك.

رفض جدها في البداية ذلك القرار ولكنها أصرت، ولم يكن جدها هو فقط من رفض قرارها بل كان الدكتور مراد كذلك على عكس الموقف الذي أبدى به عند مقابلته لها، فقد قابلها في ذلك المكان الذي واجهها فيه بحقيقة نفسها في أول حديثٍ لهما، ولكنها قابلت رفضه بسؤال:

- ألم تكن أنت من واجهتني بحقيقةٍ لم أكن أراها في نفسي من قبل؟ ألم تكن أنت من قلت لي أن عودتي هروب من مشاكلي؟

صمت قليلًا ثم قال لها:

- نعم، ولكن في بعض الأوقات الأمر يختلف.

ما قاله جعل نبض قلبها يتزايد، فقد شعرت بمقصد كلماته الغامضة، لكنها لم تعقب على كلماته وأخفت شعورها بالفرحة، قائلة:

- لكني مُصرّة على السفر.

نظر إليها وقد ظهر على ملامحه الغيظ قائلًا:

- نعم.. نعم، أعلم أنكِ عنيدة، فالأمر ليس بجديد. عمومًا سأسافر معكِ ولا رجعة في قراري أنا كذلك.

سافرا معًا ووصلت إلى بيت والدها الذي لم تكن تتخيل أنها ستعود إليه بتلك السرعة، كانت تلمس كلّ جزءٍ في البيت وتتذكر ذكرياتها مع والدها الذي شعرت بالاشتياق له كثيرًا، وكلما تذكرت ما حدث له تلوّى قلبها.

كان أول ما فكرت فيه أنها تحاول مقابلة مستر سميث، وفي نفس الوقت دون أن يعرف مستر جاك بقدومها إلى لندن حتى لا تضع نفسها في خطر، وكانت هي نصيحة دكتور مراد والتي أصرت أن يتركها تحل مشكلتها بنفسها فاستجاب لطلبها بعد إصرار منها، فقد نزل في الفندق الذي اعتاد أن ينزل فيه كلما أتى إلى لندن وأعطاها أرقام تليفونات ذلك الفندق قائلًا:

- سأنتظر اتصالك بي دومًا لتعلميني بكل خطوة، وإن لم يحدث ذلك فاعلمي أنني لن أفي بوعدي معك وسأتدخل.

وافقته. وكرست كلّ وقتها للبحث عن مستر سميث حتى يتسنى لها مقابلته، وعانت كثيرًا حتى وصلت إليه. ويوم لقائها به أخذت معها أسطوانات مدمجة كانت تحتفظ بها في بيتها، فقد كانت تعد من كلّ قضية نسختين، نسخة ورقية والأخرى في أسطوانات مدمجة كانت تحتفظ بها لنفسها وتقوم بإرسال النسخة الورقية فقط لمستر جاك. قابلت مستر سميث، ورغم أنه لم يرها إلا مرةً واحدةً فإنه تذكرها على الفور، وكيف لا وهو بذلك الذكاء المعروف عنه!

شرحت له كلّ ما مرت به مع مستر جاك، وكيف اختلس مجهودها الذي سهرت عليه. قال لها مستر سميث وهو مندهش من كلّ ما قالته:

- كان يزداد شكي في مستر جاك في الآونة الأخيرة خاصةً عندما تغير مستواه تغيرًا ملحوظًا في إعداد القضايا المهمة، لكني لم أتوقع أن يصل الأمر إلى ذلك الحد.

صمت قليلًا ثم أكمل حديثه:

- ولكن أعدك أن أسترد حقك منه وأن يأخذ جزاءه، ولكن دون أن يعلم بوجودك حتى أستطيع استدراجه ومحاسبته.

قالت له وقد شعرت بالارتياح من موقفه:

- كنت أثق بأنك لن ترضى إلا بهذا.. أشكرك كثيرًا.

ذهبت وكاد قلبها يطير من فرحة انتصارها، ذلك الإحساس الذي لم تكن لتشعر به إلا بعد مواجهتها لمشكلتها تلك. ومرت أيام ثم استدعاها مستر سميث في مكتبه الذي كانت تعمل فيه، ذهبت وقلبها ينبض وتترقب آخر ما وصلت إليه الأحداث. دخلت المكتب وقد استحضر عقلها آخر وقت كانت فيه هنا وكم كان وقتًا عصيبًا عليها، استقبلها زملاؤها بحفاوةٍ قللت من توترها، ثم توجه بها أحدهم إلى مكتب المدير الذي كان يجلس فيه مستر جاك، كانت تتردد في الدخول لكن من رافقها شجعها على أن تفعل، فدخلت إلى المكتب فإذا بشخصٍ آخر يجلس مكان مستر جاك يحييها بحفاوةٍ هو الآخر، كان شخصًا بشوشًا يتكلم في مرحٍ وتواضع، ولم يطُل الحديث معها فقد اصطحبها هو الآخر إلى قاعة الاجتماعات، وما إن فتحت أبوابها أمامها حتى وجدت التصفيق والترحيب بها من قِبل الجميع الذين تكتسي وجوههم بالابتسامة ويتوسطهم مستر سميث الذي بدأ بالحديث:

- كنت دائمًا أسعى لكبح الظلم ورد حق المظلوم إليه، وقد شعرت بألم أن يحدث نوع من ذلك الظلم في مكتبي ومع شخصٍ ممن يعملون معي، لذلك قمت بتصحيح الوضع، فالآن مستر جاك مسجون ينتظر حكم القانون عليه.

ثم نظر إلى نادية قائلًا:

- و أنا أقدر كلّ مجهودك في القضايا السابقة وأرجو أن تعودي للعمل معنا مرةً أخرى.

وما زالت نادية صامتةً من هول المفاجأة، وارتباكها يطغى على تفكيرها.. لكن كانت هناك أمور حاسمة بداخلها.. فقالت:

- أشكرك على ما فعلته من أجلي، وأشكر الجميع على ذلك الترحيب، فأنا ممتنة كثيرًا لكم، ولكن إذا سمحت لي أن أحقق رغبتي بالعودة إلى سوريا مرةً أخرى.

كان هو قرارها، ولكن اتفق مستر سميث معها بأن يستعين بها في بعض القضايا الصعبة وترسل له تحضيرها في أقراص مدمجة بالبريد من موطنها، وقد غمرها ذلك الطلب بالفرحة.

نزلت من المكتب بمشاعر تتناقض مع مشاعرها في آخر مرة نزلت منه، وفوجئت بالدكتور مراد ينتظرها فاندهشت وسألته:

- كيف علمت أني هنا؟

قال لها وهو يبتسم:

- كنت أراقبك.

فابتسمت من حديثه والذي واصله قائلًا:

- ألم تتصلي بي أمس وتخبريني بموعدك مع مستر سميث اليوم؟

تذكرت بأنها فعلت وقالت:

- ولكني لم أعطِ لك العنوان.

قال لها متعجبًا:

- وهل يصعب على أيّ أحدٍ الوصول إلى عنوان مكتب محامٍ مشهور مثله؟ يبدو أن الفرحة قد أثرت على تركيزك.

ابتسمت لتعليقه الذي يبدو حقيقيًّا.

قررت العودة إلى سوريا، وقد جاءها اتصال من جدها ليطمئن عليها وأبلغها بأخبار جديدة عن قضية السيد "رافح". فقد استطاع طلال أن يصل للسيد "رافح" وهما في محبسهما فقتله ثم قتل نفسه، وكان ذلك الخبر مفاجأةً بالنسبة لها لم تكن تتوقعها.

عادت إلى سوريا وهي برفقة دكتور مراد تفكر في حديثه لها الذي بات واضحًا أمامها، قالت له:

- كنت محقًّا دائمًا، أشكرك.

ابتسم قائلًا:

- أنتِ لم تحلمي إلا بحياة سعيدة ولكن ما كان عليك إلا أن تغيري الطريق للوصول إليها. دون هروبٍ من واقع، ودون الخوف مما هو آتٍ.

كانت سعادتها أكبر بأنه وُجِد في حياتها وكان هو كذلك.

سلكت بداية الطريق إلى الدفء وتركت لقدرها العنان بأن يرتب هو محطاته للسعادة دون أن تخشى من أن تفوتها، أو تهرب من الواقع لتصل إليها.

تمت بحمد الله

رسالتنا في المكتبة العربية للنشر والتوزيع:

- نشر كل إنتاج إبداعي ذي جودة عالية و أفكار أصيلة تعبر عن هويتنا العربية وتاريخنا العريق، تحترم قيم مجتمعنا ومعتقداته، لا تساعد في نشر العنف أو العنصرية، ترسّخ لمبدأ المساواة والحرية والعدالة. والسعى نحو الارتقاء بالأدب العربي في كافة مجالاته، والوصول به نحو العالمية.

لمراسلتنا بشأن نشر الأعمال الأدبية

arabiclibrary2017@gmail.com

صفحتنا على موقع الفيسبوك

facebook.com/arabiclibrary2017